القراءة للجميع
٢٠٠٥
مكتبة الأسرة

سلسلة الأدب

# خمس مسرحيات أندلسية

انطونيو جالا

ترجمها وقدم لها
أبو همام
عبد اللطيف عبد الحليم

# خمس مسرحيات أندلسية

## انطونيو جالا

ترجمها وقدّم لها

أبو همّام

عبد اللطيف عبد الحليم




برعاية السيدة

# سوزان مبارك


**الجهات المشاركة:**

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزارة الشباب

**التنفيذ**

الهيئة المصرية العامة للكتاب

**المشرف العام**

د. ناصر الأنصارى

**الإشراف الطباعى**

محمود عبد المجيد

**الغلاف والإشراف الفنى**

صبرى عبد الواحد
ماجدة عبد العليم

# تصدير

أنطونيو جالا، أحد كبار الكتّاب الإسبان المعاصرين، وقد مثّلت الثقافة العربية مرجعية أساسية لإبداعاته، فقد قرأها، وتأثر بشعرها ونثرها وتاريخها؛ لذا فالثقافة العربية تعد مفتاحًا رئيسيًا للدخول إلى التجربة الإبداعية له.

ولد أنطونيو جالا فى قرطبة بإسبانيا فى ٢ من أكتوبر عام ١٩٣٦، وحصل على ليسانس الحقوق وليسانس الآداب من جامعة إشبيلية، وحاز أيضًا على ليسانس الاقتصاد والعلوم السياسية من جامعة مدريد، وعمل مدرسًا للتاريخ والفلسفة، ثم مديرًا لمعهد فوكس للغات، وفى عام ١٩٦٣ فاز بجائزة «كالديرون دى لاباركا»، بعدها قرر التفرغ تمامًا للإبداع هاجرًا كل الوظائف التى كان يشغلها.

أما إبداعاته فكانت متنوعة وغزيرة، فقد أصدر عددًا من الدواوين الشعرية والقصص القصيرة والمسرحيات، كما كتب

للإذاعة والتليفزيون الإسبانيين مجموعة من المسلسلات الدرامية، بالإضافة إلى الأفلام السينمائية التى أخذت عن رواياته.

ومن أبرز أعماله: «حقول عدن الخضراء» و «الأيام الحلوة الضائعة» و «المخطوط القرمزى» و«بترا المهداة» و«آنسة الفردوس العجوز» و «خاتمان من أجل السيدة» التى طبع منها حتى سنة ١٩٨٠ أكثر من مليون نسخة.

ويسعد مكتبة الأسرة هذا العام أن تقدم للقارئ العربى هذا الكتاب الذى صدرت طبعته الأولى عام ١٩٨٦، ويضم خمس مسرحيات لأنطونيو جالا، وهى : ١ ـ ابن رشد، ٢ ـ الزهراء، ٣ ـ المنصور بن أبى عامر، ٤ ـ قصر إشبيلية، ٥ ـ الحمراء.

قام بترجمة هذه المسرحيات الشاعر المترجم الدكتور: عبداللطيف عبد الحليم «أبو همام» أحد أبرز المهتمين بالأدب الإسبانى المعاصر، والذى تربطه باللغة الإسبانية علاقة وثيقة، بدأت منذ ١٩٧٦، عندما سافر إلى إسبانيا مبعوثًا إلى جامعة مدريد، حيث حصل منها عام ١٩٨٣ على الدكتوراه عن دراسته المقارنة بين شعر العقاد وميجيل دى أونامونو.

مكتبة الأسرة

# الإهداء

**إلى صديقى وأستاذى**

**الدكتور أحمد هيكل**

أنشدك قول الشاعر أبى بكر الدانى الأندلسى:

أراشوا جناحى . ثم بلوه بالندى

فلم أستطع من حيهم طيرانا

ع.ع

# مقدمة المترجم

ستظل الأندلس مسرحية مأساوية، تثير قرائح الشعراء والكُتَّاب، من عرب، وإسبان، ومن أمم أخرى، يلتقطون منها الأحداث الانفجارية ـ وما أكثر هذه الأحداث ـ فينسجون منها قصيدًا، ومسرحًا، وقصة ، ولوحة، وتمثالاً، إلى غير ذلك من صنوف الفن وطرائقه .

وأنطونيو جالا شاعر، وكاتب مسرحي من قرطبة عاصمة الخلافة قبل أن يكون من إسبانيا، ونعنى بذلك أنه قرطبى المزاج، والشعور والفكر، ومعازف الأعضاء، ولعله كان يصف نفسه حين وصف ابن رشد في مسرحيته المسماة باسم فيلسوفنا العظيم، وحين وصف قرطبة وأهلها : «إن طقسك ومناظرك ـ قرطبة ـ يكادان يماثلان طقس اليونان ومناظرها أكثر مما يماثلان بابل، وهما يجعلان رجالك هادئين وأذكياء، وقد لاحظت كذلك أن صوف الغنم الأندلسي أرق بكثير مما هو في بلد آخر، كذلك بنية رجالك أكثر توازنًا كما يشهد بذلك لون سحنتهم، وصفة شعرهم ، لون

الرجال الأندلسيين ليس في سمرة أهل الجزيرة العربية، ولا شعرهم له جعودة شعر الإفريقيين ولا هو سبط كشعر أمم الشمال، بل هو متموج حريرى».

هذا التكوين القرطبى الأندلسى عميق التأثير فى أنطونيو جالا، وفى رصفائه من شعراء الأندلس وكُتَّابه، وهذا الإقليم الجنوبى لا يزال ـ حتى الآن ـ أنجب الأقاليم الإسبانية شعراء وفنانين، مما دفع شاعرًا كبيرًا مثل رفائيل ألبرتى أن ينظم قصيدة عنوانها «الشعراء الأندلسيون» تباع ملحنة ومغناة على أشرطة التسجيل .

وشعراء الأندلس Andalucia حين يتغنون ببلادهم إنما يحنون إلى مجد قد أشاح، وازدهار قد أدبر، أيام كانت قرطبة عاصمة العالم تحت الحكم العربى، وهى وغيرها الآن محافظة لأحد الأقاليم، ويبدو أن الجنوبى هو الجنوبى فى كثير من بلاد العالم ، فالجنوب الأندلسى بعد زوال الحكم العربى أصبح كماً مهملاً ، ينظر إليه ـ أيام محاكم التفتيش ـ نظرة الريبة والتوجس، فإذا رأينا شاعرًا جنوبيًا يتغنى ببلده ـ وما أكثر الشعراء وما أكثر غنائهم ـ فإنه يحلم بالماضى المزهر ويتمرد على الإهمال الحاضر، ولعل فى غنائيات مانويل ماتشادو ، ورفائيل ألبرتى، وشاعر الحمراء بياسبيسا وغيرهم ما يرشح لهذا الرأى.

ثم إن فى تاريخ الأندلس مواقف كثيرة تحتاج إلى من ينفث فيها حياة الفن والشعر، والعبرة ـ فى النهاية ـ بالشاعر الحق القادر على استلهام تلك المواقف.

والتقاط النقاط الدرامية بالنسبة لكاتب المسرح شيء شديد الوعورة والأهمية ، لأن عدسته تتجاوز التاريخ الميت إلى الفن الحي، دون اعتساف ولا تحميل للأشياء غير ما تحتمله طبيعتها، ودون أن يطمس التعصب المقيت كما هو الحال لدى بعض الشعراء الإسبان ـ ما هو باق وإنسانى بعيدًا عن العرق والجنس.

إن للكاتب رسالة إنسانية اقتضته الحياة القيام بها، وتلك جزء من الأمانة التى حملها الإنسان، ولن تكتمل هاته الرسالة ـ إلا باكتمال أدواتها ـ أى أدوات الفنان الكاتب، ولن يصلح الموضوع ـ مهما شرف ـ أن يخلق كاتباً إذا قصرت به أدواته، مهما أسقط ، ومهما تذرع إليه بجاه الشهرة، لأنها شهرة عوراء تسىء إلى صاحبها وإلى موضوعه!!

كثير من كُتَّاب العرب حين عالجوا موضوعات أندلسية للمسرح، لم يحالفهم التوفيق، برغم تزاحم النظارة على مشاهدة مسرحياتهم، لأن بناء الموضوع مفتعل أحيانا، ولأن المعالجة غير مقنعة أحيانا أخرى ـ ولأن العجز التعبيرى يصيب الفن الشعرى ـ وهو صعب وطويل سلمه ـ بالكساح ، وفقر الدم ، فلا ترى فى النهاية إلا مخلوقًا مخدجًا ، شائه الملامح والشيات . لكن هذا لا يعنى أن كُتَّاب العرب مخفقون مسرحيًا، فمنهم من تجاوز كل هذه الآفات ، أو جلها ، فغدا لهم مسرح شعرى عن الأندلس، يحظى بالتقدير والتعاطف.

لكن الآفة عندنا تقابلها آفة أخرى لدى كُتَّاب المسرح الإسبان حين يعالجون الأندلس العربية ، وقد ألمحنا إليها قبل ذلك، ونعنى بها التعصب الذميم ، وتصوير العرب على غير حقيقتهم، وهم - لودروا - خلف لذلك السلف العربى أو الأندلسى أن أردت الدقة.

من أبرز كُتَّاب المسرح الإسبانى فيما يتصل بالأندلس خوسيه أورثكو فى مسرحيته السلطانة عائشة وفرنسسكوا بياسبيسا فى مسرحيته المعتمد بن عباد ، وابن أمية ، وأنطونيو جالا فى مسرحياته التى نقدم لها بهذه السطور، ومسرحيته «خاتمان من أجل سيدة» وقد ترجمناها ونُشرت فى الكويت ١٩٨٤.

وصاحبنا جالا فى كل كتاباته تقريبًا يتنفس عبق التاريخ الأندلسى، ولا تكاد تحس لديه ما يسمم هذا العبق من تعصب وهوى ذميم، وإن عابه بعض المتطسين أنه يختار اللحظات الحرجة التى تصم ما هو عربى، أو بتعبير آخر يقع على لحظات الضعف والانهيار العربى، ولعل التكثيف الدرامى يقتضى اختيار مثل هذه اللحظات، ولا تثريب على صاحبنا ولا على غيره من ذلك الاختيار، لأنه اختيار فنى، لا سياسى ولا عرقى، ثم ما الخشية من نقد التاريخ بوسائل فنية؟ إن الرجل يناصر قضية «الحرية» فى مسرحه، نحس بذلك فى مسرحيته عن «ابن رشد» كأنه يدافع عن نفسه وعن قيمة الإنسان المفكر ضد الديماجوجية ، والسلطة المطلقة ، والهوج الذميم ، وضيق الأفق باسم الدين وباسم السياسة وباسم أى شىء كان ، ويذم الوسائل غير المشروعة التى امتطاها

المنصور بن أبى عامر للوصول إلى السلطة فى مسرحيته التى تحمل هذا العنوان «المنصور» وتلمح «العاطفية» الشديدة، ورقته الفائقة فى حديثة عن الزهراء حديث العاطف الراثى لها، وتقف على نظرته الفاحصة فى نقد التاريخ ورجاله فى مسرحيته قصر أشبيلية والحمراء.

إن التاريخ لدى أنطونيو جالا فى هذه المسرحيات شاخص حى، أكثر من شخوصه وحياته فى مسرحياته الأخرى، وكأنى به - وهو يكتب هذه الموضوعات - إنما كان يعتمد على التاريخ اعتمادًا كاملاً، ونقصد هنا بالتاريخ معناه الاصطلاحى، وغير الاصطلاحى، أى أنه يمثل ثقافة تلك الفترة تمثلاً كاملاً، ويسقط عليها إسقاطات معاصرة، لأن الإنسان هو الإنسان فى كل مكان وزمان.

المسرحيات ذات الفصل الواحد قريبة من فن الشعر أو فن القصة القصيرة، فى حاجة شديدة إلى التكثيف الدرامى أو ما أسميناه بالانفجارية وقد استطاع جالا أن يقتنص هذه اللحظات المكثفة من غابة التاريخ، لكنه الاقتناص الذى يذكرك بأصلها الشارد، ونعنى بذلك أن العقدة فى هذه المسرحيات أو فى بعضها - بتعبير أدق - فيها شىء من «الحل» ضد «العقد» مما يجعل المسرحية هنا قريبة أو شبيهة «بالمقال المسرحى» إن صح هذا التعبير، أو «مسرحية المقال» والمقال هنا «فنى» بطبيعة الحال، نستثنى من ذلك الحكم النقدى حديثه عن «ابن رشد» ففيه العقدة مبرمة ومكثفة ، أما الأخريات ففيها تفاوت ، ولعل مرد ذلك يئول إلى أن جالا شاعر غنائى قبل أن يكون دراميًا ، فغلب غناؤه

الشعرى عليه ـ وإن كانت المسرحيات نثرًا هنا ـ وقد نظم هذه الموضوعات أو بعضها شعرًا غنائيًا مثله فى ذلك مثل بنى جلدته من الشعراء الإسبان قديمًا وحديثًا.

ليست موضوعات أنطونيو جالا هنا عربية بعناوينها فحسب، بل إن تناوله يكاد يكون عربى الملامح والشيات، نلمح هذا فى إنصافه للتاريخ العربى إنصافًا يحمد له إنسانيًا وفنيًا، ونلمحه كذلك فى تأثره الجيد بالتراث العربى تاريخًا وأدبًا ، إلى حد نقل أبيات من قصيدة أبى البقاء الرندى النونية المشهورة التى يرثى بها سقوط بعض الممالك الأندلسية، وترجمت للإسبانية عن الألمانية، ترجمها أولا إلى الألمانية فون شاك وترجمها عنه خوان باليرا فى وزن قصيدة خورخى مانريكى فى رثاء والده دون رودريجو، وقارن بين القصيدتين، وفى أخذ جالا أيضًا آيات من القرآن الكريم، ـ وله أكثر من ترجمة إلى الإسبانية ـ وفى أخذه كذلك أبياتًا من زجل ابن قزمان ، ـ وترجمه إلى الإسبانية غرثيه غومث، وفديريكو كورينطى ـ لكن جالا بجانب هذا الاقتباس ـ كان ينثر بعض الأبيات العربية إلى الأسبانية دون أن يلمح إلى ذلك، وقد وقفنا على بعض هذه الأبيات نذكرها هنا، يقول أبو إسحاق إبراهيم بن عثمان:

لا تلحنى إن غدوت ذا طرب      لما ثنانى للأنس غـــــريد

طورًا جليـــــد، وتارة طرب      كالعود منه الزوراء والعود

ترجم لهذا الشاعر ابن سعيد فى المغرب جـ ١ ص١١٠ تحقيق شوقى ضيف، وترجم له ابن سعيد أيضاً فى رايات المبرزين نشر

غرثيه غومث، وترجمه إلى الإسبانية ، وأنطونيو جالا - بلا ريب - أخذ هذا المعنى ونثره فى مسرحيته عن ابن رشد - يراجع هذا المعنى لدى جالا فى ص ١٥.

وفى مسرحيته عن الزهراء حديثه الذى أنشأه بينها وبين عبدالرحمن الناصر، يناجى كلاهما الآخر، مأخوذ من بعض أبيات ابن بقى حيث يقول:

| | |
|---|---|
| عاطيته والليل يسحب ذيله | صهباء كالمسك الفتيق لناشق |
| وضممته ضم الكمى لسيفه | وذؤابتاه حمائل فى عاتقى |
| حتى إذا مالت به سنة الكرى | زحزحته عنى وكان معانقى |
| باعدته عن أضلع تشتاقه | كى لا ينام على وساد خافق، |

ولهذه الأبيات سيرورة فى الأندلس عارضها كثيرون ما بين مؤيد لهذا المعنى، وما بين مناقض له، أبرز الفريق الثانى الذى يقول :

ونم هنيئًا بخفق قلبى كالطفل فى نهنه المهاد

- الحديث عن ابن بقى فى رايات المبرزين ص ٧٩ تحقيق النعمان القاضى، وترجمها غومث كما قلنا آنفا وقرأها جالا وغيره بلا ريب.

تأثر جالا بالثقافة العربية شعرًا ونثرًا ، وتاريخًا ، وفقها لا مرية فيه، وهو كثير ، ربما تخرج هذه المقدمة عن إطارها لو اقتفيناه ، لذا حسبنا الإشارة.

ومعلوم أن ترجمات المستشرقين - وخاصة ترجمات غومث - إلى الإسبانية صادفت إقبالاً كبيرًا من جانب الشعراء والأدباء الأسبان ،

ربما للجو الرومانسى الذى ساد إسبانيا فى أواخر القرن الماضى، وما يزال حتى الآن وإن اختلف تناول الشعراء لكن الرومانسية غالبة كذلك مهما كان هذا الاختلاف ، فالحنين إلى الماضى، لا يفتأ يساور نفوسًا كثيرة، ولا مثلبة فى ذلك لأن المحك هو الصدق فى التجربة ، وبراعة الأداء.

هذه المسرحيات مُثلث كلها فى التليفزيون الإسبانى، ولقيت رواجًا كبيرًا من عامة النظارة، شاهدت بعضها وأنا فى إسبانيا طالب بعثة - ولمست صنيعها فى نفوس الناس وعجبت ، وكان مؤلفها يخشى أن تجابه بالإشاحة والإعراض، نشر منها «ابن رشد» فقط فى مجلة Nueva Estafeta وأهدانى الأربع الأخرى - على الآلة الكاتبة - حين عرف أننى أزمع ترجمتها إلى لغة قومى.

وجالا نموذج للأديب الذى يعيش من قلمه - فى أوروبا - لا فى الوطن العربى - وويل لمن تدركه فيه حرفة الأدب - فهو يعيش من دخل كتبه ويكفى أن يعلم القارئ أنه طبع من مسرحيته «خاتمان من أجل سيدة» مليون نسخة، وعُرضت فى إسبانيا وأمريكا اللاتينية أكثر من ألف ليلة، وقد انتخب أخيرًا رئيسًا لجمعية الصداقة العربية الإسبانية، ترجمت معظم كتبه إلى لغات كثيرة، لكنه سعد كثيرا بترجمته إلى العربية، أكثر من سعادته بترجماته الأخرى، ولعل سعادته هذه أعدتنى فسعدت بتقديمه إلى القارئ العربى قبل ذلك، وتتضاعف هذه السعادة لأننى قدمته تقديم الصديق إلى القرَّاء الأصدقاء.

المعادى فى ٢٨ من يوليو ١٩٨٦ — عبد اللطيف عبد الحليم

# ابن رشد

(قرطبة من عل، المدينة، الشرقية، المنازل البيضاء، الأسقف الملكية، إلخ، عند النزول نرى ابن رشد، وهو فى السابعة والستين من عمره يعبر من عدة أماكن مختلفة ومهمة مع أناس عاديين من العصر الحاضر، ومنذ اللحظة الأولى نستمع إليه).

ابن رشد : يقولون عنك إنك لست سوى نفاية منك أنت يقولون عنك إنك لست سوى ظل لما كنته بالأمس. يقولون عنك يا قرطبة، أنك عندما كنت عاصمة العالم وصلت إلى درجة بالغة من الجمال، ما أعسر أن يعتقد المرء ذلك حين لا توجد اليوم - وأنت محافظة لأحد الأقاليم - أية مدينة تتفوق عليك، فيك راق الجمال، وفيك بلغ الناس - فى سخاء - غاية جهدهم ، فماء نهرك متسرب بين شعاب الجبل والقرى عكس بالأمس مدى ثرائك، ويعكس اليوم مدى سكونك، إن طقسك ومناظرك يكادان يماثلان طقس اليونان ومناظرها أكثر مما يماثلان بابل، وهما يجعلان رجالك هادئين وأذكياء، وقد لاحظت كذلك أن صوف الغنم الأندلسى أرق بكثير مما هو فى بلد آخر، كذلك بنية رجالك أكثر توازنًا كما يشهد بهذا

لون سحنتهم، وصفة شعرهم. لون الرجال الأندلسيين ليس فى سمرة أهل الجزيرة العربية، ولا شعرهم له جعودة شعر الإفريقيين ولا هو سبط كشعر أمم الشمال بل هو متموج حريرى، أننى أحب كل الأندلس من خلال اسمك ياقرطبة، عندما أكون بعيدًا عنك كل شىء يبدو لى غريبًا حتى أنا نفسى أبدو غريبا، لقد صنتك دائمًا فى سويداء قلبى كلؤلؤ مكنون فيك أود أن ألفظ آخر أنفاسى، وأن يتحلل جسدى ويشكل جزءًا من ثراك (يعبرنا بابا صغيرًا) لأنى هنا - خلال سنوات كثيرة - خرجت من الشرقية لأعود مرضاى، فإن القرطبين من الأمير إلى الخفير أودعوا صحتهم فى يدى، يقولون إن المرء إذا نشد لبن العصفور يجده فى أشبيلية وفيك ياقرطبة من الذى يتجاسر على نشدان لبن العصفور؟ حسب المرء أن يتنفسك شاعرًا بيدك المعطرة على خده، وبأنفاسك الدافئة على جيده ، كتب الشقندى أن أهل أشبيلية قوم ذوو خفة وظرف، ولوذعية وسرعة بديهة، ويضيف أن الأشبيليين على ضفاف نهر الوادى الكبير. يعزفون على الربابة والقانون ، والقيثارة ، والناى، والبوق، بينما يمزحون، ويتماجنون مع النبيذ، أشبيلية اليوم هى عاصمة الأندلس، أننى أحبها لأننى أحبك أنت، فإنها بمثابة أختك، ومع ذلك لا أدرى لماذا؟ بيد أنه حين يموت عالم فى أشبيلية يحملون مكتبته لبيعها فى قرطبة، وحين يموت مغن أو موسيقى فى قرطبة فإنهم يحملون آلاته لبيعها فى أشبيلية (أمام أحد الأعمدة فى بهو البرتقال) مستندًا إلى هذا العمود طالما ألقيت دروسى، قليل هم أولئك الفتية القرطبيون الذين لم يأخذوا منى أكثر مما أخذوا من

آبائهم. أفضل هذا السكون، أفضل هاته النظرات، أفضل أن تبقى الأشياء فى مكانها هادئة حيث أقامتها القرون، يقولون عنى أننى رجل أتجاوز الحدود فى صرامتى، لأننى لم أصنع شيئًا غير المدارسة، فى الواقع أذكر أننى نسيت الكتب ليلتين فقط: أولاهما ليلة موت أبى، وثانيتهما ليلة عرسى، يقولون عنى إننى رجل صارم، أننى لا أرانى هكذا، أعتقد إننى فى آن واحد رجل صارم ومرح، مثل الخشب الذى فى وسعك أن تصنع منه قوسًا للحرب، وأن تصنع منه عودًا، إنك هكذا أيضا يا قرطبة، لذا عندما ذهبت إلى موريتانيا أو إلى أشبيلية كنت أشتاق إليك كثيرًا لأن المرء يفكر جيدًا، ويعمل أفضل حين يتنفس الهواء الذى ولد فيه ، أننى أشفق على الأندلسيين المنفيين، ربما لا يذبل رجل آخر مثلما يذبل الأندلسى حين يقصى عن سمائه ، عن كسله، عن عطره، عن طربه، عن شعوره الصحيح بالحياة والموت. (أمام باب المسجد) لقد مررت بهذا القوس مرات لا تحصى لأؤم المسلمين فى صلاة الجمعة باعتبارى قاضى القضاة (نرى ضوءًا بين غابة الأعمدة الداخلية) وهنا فى طريقى اليوم ليحكم على! أنا الذى مارست القضاء أكثر من ربع قرن، وفصلت فى كل أمور هذه المدينة: مدينتى، وحتى الآن كانت أحكام قضاة قرطبة الآخرين فى قبضتى: محتسب السوق، وكيل المواريث والقائم بأمور المعايير والأثمان صاحب المدينة، صاحب ديوان المظالم، هنالك جالس فوق حشيتى أفصل بالعدل والقسطاس المستقيم، فليجعل الله المقياس الذى يحكم على به اليوم من نفس المقياس الذى كنت أحكم به، وإن كان

يبدو لى أنه مجلس أكثر من العدد اللازم، لم تتعود العدالة أن تبنى عشها وسط الزحام.

(ضجة أصوات، تهتف كلها تقريبًا بلا نظام «النظام، النظام» يختفى ابن رشد فى ظلال الأعمدة).

صـــــوت ١ : القضية الأولى هى عدم نقاء دم ابن رشد، فهل لنا أن نعرف إلى أية قبيلة يعزى؟ من الذى يؤكد لنا أنه ليس من أصل يهودى؟ (همس دائم، وجلبة مستمرة).

الأصـــولـى : منذ تسعين سنة كان ابن رشد ـ جد هذا ـ قاضياً لقرطبة.

ومنذ ستين سنة كان أب هذا قاضيًا كذلك، من نحن حتى نحكم على سلالة قضاة؟

صـــــوت ٢ : (فى هياج) هاهنا نحن قادة العسكر فى قرطبة.

صـــــوت ٣ : وفقهاء قرطبة.

صـــــوت ٤ : وقضاة قرطبة.

صـــــوت ٣ : لقد اجتمعنا هنا بأمر الأمير لنفحص مؤلفاته، ونقرر الأمر بشأن هرطقته.

الأصـــولـى : وعن صحة عقيدته لا؟

صـــــوت ٥ : حذار يا إبراهيم الأصولى، لا تهو معه بسبب دفاعك عنه.

صـــــوت ١ : إننى أتساءل لماذا يسميه النصارى ابن رويث: أليس رويث هذا لقبًا نصرانيًا؟

الأصـــولـى : وليس نصرانيًا لقب مـردنيش؟ والملك لب المرسى لب بن مردنيش ، ألم يكن لوبى بن مردنيش؟

صـــوت ٤ : لقد كـان الملك لب أشد الخصوم عنادًا لملوكنا الموحدين.

الأصـــولـى : بيد أن ملكينا أبا يعقوب وأبا يوسف تزوجا ابنتيه، برغم ذلك فلا نخلط إذًا بين صحة العقيدة وبين البيولوجيا ولا بين الشفقة وبين نقاء الدم، أننا هنا فى قرطبة حيث تربع التسامح قرونًا طويلة، فلا نهدمه اليوم.

(وجه ابن رشد بين صخب المجلس).

صوت ابن رشد : التسامح .. ألم يبدأ اليوم فى التخلى عن عرشه (على أبواب الكنيس) كان ميمون صبيًا - تقريبًا، عندما قابلته ذلك الصباح، ومع ذلك لم يكن صباحًا جليًا، ولدى أبواب الكنيس، كان الدمع يجول فى عينيه أومأ إلى أن أدخل.

صوت ميمون : أستاذ ابن رشد ..

ابـن رشـــد : (وهو فى الخامسة والعشرين) لا تنادنى بلقب أستاذ:

صوت ميمون : كانت آخر مرة وطأت فيها أرض الكنيس يا ابن رشد.

لقد أجبرنا الموحدون على الإسلام، وتحول المرء عن عقيدته بسبب الخوف من الموت لن يكون على

الإطلاق تحولاً صحيحًا، وقد أعلنوا كراهية اليهود، منعوكم - أنتم المسلمين - من خدمتنا والتعامل معنا، وحرمونا من التجارة معكم، وذبح الحيوانات من أجلكم، فلا يؤذن لنا بارتداء زى شريف، ولا يدعونكم تلقون بالسلام إلينا، وحظروا علينا شراء الكتب العلمية، حتى ممارسة الطب المفيدة، وبعد قليل يا ابن رشد سيحرمون علينا التفكير، ويمنعوننا أن نكون رجالاً يا ابن رشد، سأمضى عن قرطبة.

ابن رشد : صبرًا ياميمون، أنك مازلت فتى، والأمور تتبدل.

صوت ميمون : نعم، تتبدل إلى أسوأ، سأمضى عن قرطبة، ليس لى إلا حياة واحدة، كنت أود أن أودعك، وأوصيك باحترام الرأى الآخر، والمعاشرة السلمية، وتبادل الحوار، والتفريق بين العدو وبين المخالف فى الرأى، لأن هنالك تكمن أصالة أى علم، وأى دين مهما كان، وداعًا يا ابن رشد، حافظ على قرطبة!! واحترس من قرطبة!! (مازال أثر الضجة فى المسجد على وجه ابن رشد).

صوت ٦ : لماذا لم تشرح لنا يا أصولى صداقته الحميمة بالأمير أبى يحيى شقيق السلطان؟ ألم تكن تلك الصداقة مؤامرة؟

الأصـــــولـى : ألم يكن ابن رشـد أيضًا صـديقًا حـمـيـمًا لأبى يعقوب؟ أليس اليوم صديقًا حميمًا أيضًا لابنه؟ ألا يدعوه أبو يوسف ـ حفظه الله ـ أخاه؟

صـــــوت ٦ : إن التقـرب من الملوك ذو عـاقبة وخيـمـة دائمًا، والخيـانة تتسلق هوى الحكام المفـرط كما يتسلق اللبلاب جذع الشجرة.

صـــــوت ٥ : إن سوء استعمال الثقة يستلزم ثقة سابقة.

صوت ابن رشد : (يسلط ضوء على وجهـه) كنت قد أتممت أربعين سنة حين عين أبو يعقـوب ابن طفـيل طبـيـبـه الخاص، وعينه وزيرًا ، وكان يعيش فى قصره، وقد واعـدنى ذات أصـيل هناك، وقـدمنى للسلطان، وكنت شديد الارتباك...

(قاعة القصر، وابن رشد فى الأربعين من عمره).

صوت السلطان : حـدثنى ابن طفـيل عنك بدون كلل، ملحًا على أن لديك نظريات عـجيـبـة، ولا تتسق دائمًا والسنن المرعية، ماذا ترى مثلا فى خلق العالم، أهو قديم أو مـحـدث؟ (تبـدو حيـرة على ابن رشـد) إن ابن سينا يعتبر مسألة الوجود بمثابة عرض للجوهر (يتـحـدث عن خلق واجب لكائنات عـرضـيـة) وفلاسفـة الإغريق لا يرونه هكذا: لأن العـرضيـة تنافى الوجوب.

ابن رشد : (متحمسًا) وأنا أيضا لا أرى هذا ياسيدى. فإن الله خلق العالم منذ الأزل، لأن الإرادة الإلهية لا يمكن أن تحركها علة خارجة عن الذات، كان العالم دائمًا ممكنًا، ومخلوقًا على الدوام، ومسألة الخلق - كما أرى - أمر واجب ، وإن كانت المخلوقات شيئًا عرضيًا.

صوت السلطان : إن أرسطو غامض. ليتك تشرح كتبه وتعلق عليها لتتجلى لنا.

صوت ابن طفيل : سيدى ، ليس ثمة رجل أكثر استعدادًا لهذا من ابن رشد ولهذا أصررت على إحضاره إليك.

ابن رشد : لست كفؤًا لهذا ياسيدى، ولست أعرف اليونانية، ومؤلفات أرسطو كثيرة جدا، وجهودى ضئيلة جدًا.

صوت السلطان : حاول هذا يا ابن رشد. (بينما ابن رشد يقبل الأرض بين يديه) حاول يا ابن رشد.

(فى المسجد مرة أخرى)

صوت ٤ : فى رسالة وجهها إلى أمير المسلمين لقبه «بأمير البربر» دون أن يستخدم أى لقب من ألقاب التوقير.

الأصولى : (ثائرًا) ، هذا شىء قد مضى، وقد اتضح الأمر، قد اتضح، وفهم أبو يوسف شرحه، كان خطأ من الناسخ، الذى التبست عليه علامات الترقيم، كتب ابن رشد «ملك البرين» أيتخذ الأمير طبيبه الخاص رجلاً لا يوقره؟

صـــــــوت ٨ : ولماذا أمر إذًا أن نحاكمه؟

الأصـــــولـى : ليست محاكمته التى علينا أن نقوم بها، بل أن نرى رأيًا، وبدون صخب.

صـــــــوت ٣ : فى إحدى رسائله اعتبر النجوم آلهة، وذكر اسم الألهة فينوس.

الأصـــــولـى : كان اقتباسًا يونانيًا، لقد سرق بعضهم من مكتبته ورقة مفردة، وعرضها على السلطان، كفى! كفى! أنكم تتبرعون باتهامات كاذبة، ومنسية، ودسائس ندامى سفيهه، وبأحقاد وخلافات، ابن رشد فوق كل هذه الترهات، (ضجة ضخمة، يتقدم ابن رشد إلى وسط الضجة).

ابـن رشـــــد : اهدءوا ، اهدءوا، شكرًا لك أيها القاضى إبراهيم الأصولى، شكرًا يا صديقى، بيد أنى أرجوك ألا تؤد شهادة طيبة فى حقى أكثر مما صنعت، حسبك أن يتهم أحدنا (يتوجه إلى من حوله) حضرات العلماء والقادة، والفقهاء، أنكم مجتمعون فى هذا المجلس لتقييم مؤلفاتى، وأنها لمعقدة، وغزيرة حتى أننى لا أذكرها، لقد كتبت عن كل شىء تقريبًا، تحدثت عن ما هو إنسانى، وعن ما هو إلهى، وبدون ريب وقعت فى أخطاء علمية، بيد أنى أؤكد لكم أن نيتى كانت دائمًا أن أعول على ما جاء فى القرآن الكريم، وما جاء فى تفاسيره

الصحاح، أنكم أنتم أهلى، كنت طبيبكم، وطبيب
أولادكم ونسائكم، لقد حيا بعضنا بعضًا فى شوارع
قرطبة، وتعارفنا، و صلينا معًا، وتسامرنا معًا
أحيانًا فى هدوء فى منازلكم أو فى منزلى حول
آلاف الأمور المهمة، وتبادلنا الآراء والنظرات،
وكنت قاضى قضاتكم، ودافعت عنكم فى المجلس
الملكى، مهتمًا بأمور طلاقكم، وشهاداتكم،
ومواريثكم، وتكفلت بأموال الغائبين، واليتامى،
والقاصرين، وطلبت منكم أحيانًا مشورة فى
مجالسى، وكنتم شهودًا على أحكامى وعلى
نزاهتى، وبجانبى هنا توجد وثائق أحكامى، لم
أصنع فى حياتى أكثر من المدارسة، والتأمل،
ومساعدة الذين حولى، لهذا أقف بينكم هنا
بلا خشية، أننى أؤمن بالإنسان وأثق فيكم، لأنكم
تعرفوننى، أنكم فقهاء وطنى، وقضاته، وقادته.

صوت ٣ : (بعد لحظة صمت خفيفة) أنك تحدثت عن القرآن
وتفسيراته، وتؤكد أن الدين له نواح متعددة حسب
الرجال واستعداداتهم ، وضح ذلك.

ابن رشد : أفهم أن ثمة ثلاث طبقات من الرجال، كل طبقة
يناسبها ضرب من الأدلة. فالعامى يركن إلى إيمان
بدون أدلة، أو بأدلة خطابية، والفقهاء أهل اقتناع
يستخدمون الفكر الجدلى، وحججًا احتمالية،

والفلاسفة أصحاب براهين، مثلهم الأعلى هو العلم، يشترطون أدلة لازمة إلى أقصى حد.

صوت ٣ : انظروا، أنه يضع الفلاسفة فوقنا، نحن الفقهاء! زندقة.

صوت ٩ : فى إحدى المناسبات التقيت بالصوفى ابن عربى، وقد اعترف لك بأن «الحب هو دينى» وأنت أجبته: بأن «العلم هو خير الأديان».

ابن رشد : فى ذلك اليوم شكرت الله كثيرًا، لأننى وقد انكببت على التأمل والمراجعة، والمباحث العقلية تفردت برؤية رجل - بعينى هاتين - دون مدارسة، ومطالعة وبدون تدريب - ولج جاهلا إلى عزلته الروحية، وخرج منها وقد أصابته العدوى الإلهية.

صوت ٧ : هذا تعبير زندقة

ابن رشد : أتخلى عن هذا التعبير : أنه مجرد استعارة.

صوت ١٠ : ألا تؤمن بالوحى ؟

ابن رشد : أؤمن بأن الله يعلم البشر عن طريق الوحى، ما لا يستطيع العقل أن يصل إليه، بيد أن هذه الحقائق العليا التى يحتاج إليها المرء ليعيش نوعان : حقائق مجهولة على الإطلاق أى أن إدراكها ليس فى طبيعة العقل، وحقائق مجهولة لطائفة من الناس ليس لديها استعداد كبير، وفى رأيى أنه يجب على

الإنسان أن يحاول - فى إصرار - أن يفهم أسرار الدين.

أصوات متعددة : زندقة، فسوق !

صـوت ٦ : كيف يكلم الله البشر؟

ابـن رشـد : بثلاث طرق كما جاء فى القرآن، بالوحى، أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً، وفضلاً عن هذا الوحى الذى لا يدرك بالعقل، فثمة طريقة أخرى للحقائق الطبيعية فى ذرع الجهد الإنسانى المثقف أن يحصلها، وليس ثمة ما يدعو إلى تعارض العقل والنقل.

أصوات متعددة : زندقة، زندقة!!

ابـن رشـد : (يجهر بصوته كى يسمع) إن المؤمن له الحق - بل إنه واجب عليه - أن يتفكر فى دينه.

أصوات متعددة : فسوق!!

ابـن رشـد : إن الفكر الفلسفى لا يقودنا إلى نتائج تعارض النقل، لأن الحقيقة لا تناقض الحقيقة إلا إذا تدخلت عوامل منحرفة مثل التعليم الغلط، والجهل، والهوى، والتحيز.

أصوات متعددة : إنه يهيننا ، أنه يحمل علينا!!

صـوت ١٠ : (محاولاً أن يكظم سخطه) وماذا عن أفكارك المتمردة فيما يتعلق بالنساء.

ابـن رشـد : ليست متمردة. لقد كتبت فحسب عن مساواة الرجل بالمرأة فى بساطة، وأكدت أننا نجهل

مهارات المرأة، لأنها لم تستخدم إلا فى الإنجاب، وبسبب أننا لانعدهن لأى نشاط إنسانى، فقد صرن يشبهن النبات. وأحد أسباب فقر بلادنا هو عدم أهلية وكسل النساء اللائى أراد لهن الرجال هذا، فإذا كن ضعفنا فى العدد كيف لا نعتنى بهن؟ كيف ندعهن، ولا نسمح لهن فى ظروف نادرة بسوى الغزل والنسج؟ أننى أعجب بالمرأة وأحترمها.

صوت ٥ : ويقول إن أفكاره ليست متمردة !

صوت ٩ : قد قررت أنه لا يوجد طغيان أشد من طغيان العلماء أو الفقهاء.

صوت ٢ : وأن الجيش هو حارس الشعب وليس صاحبه.

ابن رشد : إن هذه الجمل تفهم فى سياقها الذى وردت فيه، أننى فيلسوف يخيِّل لى أن التزمت فى الدين خطأ، وأنا رجل أندلسى.

صوت ٢ : (مقاطعًا) أنه يجاهر بالقومية الأندلسية إزاء دولة الموحدين.

ابن رشد : إننى لا أجاهر بشىء. أقول فقط أن للأندلس تقاليد راسخة من الحضارة والمعرفة، ليس من الممكن أن تحكم كما تحكم أقاليم أخرى لا تضاهيها فى شخصيتها، إن الأندلس دائمًا احتلت محتليها.

أصوات متعددة : ماذا تريدون أن تسمعوا أكثر من هذا، هيا بنا إلى السلطان.

صـــــوت ٦ : المثقفون فرديون، ومناهضون للحكومة.

ابـن رشـــــد : ليس الأمــــر هـكذا، أظن فـــقـط أن السـلوك الاجـتـمـاعى لـلإنسـان لابد أن يخـالف سلوكـه الفـردى، فـفى الوسط الجـمـاعى مـا تـزال ممارسـة الفـضـائل أكـثـر حـدة ودقـة منهج، بالطبع ليست الدولة فى حد ذاتها شيئًا، أنها جهاز تربوى، من الضرورى أن يكون له هدف لجعل الإنسان أفضل. عندما كنت قاضيًا فى موريتانيا أغرقتها بالمدارس، ومـا كـان للدولة هدف إلا هـدف أفـرادها، هـكذا يكون الخـير العـام : تحقيق السعادة للمواطنين من خـلال رعـاية القـانون، والخـلاف بين المثـقـفين والحكام يكمن فى أن الفـــريق الأول يتـــأملون الفـضـائل المجـردة، وأن الفـريق الثـانى عـملى يحاولون تطبيقـها، أن السياسى يحقق مـعـجـزة حقـيـقـيـة: إذا حصل على أن يؤدى الناس ـ وهم أحرار ـ ما ينبغى عليهم أداؤه داخل النطام العالمى. يتطلع الفيلسوف إلى هذا الصراع من بعيـد، لأن ثمـــة أيضًا فى هـذا الصـــدد ثلاثة أصناف من الناس: الماديون الذين يبـحـثـون عن اللذة والمتـعـة، والشـجـعـان الذين يسـعـون إلى المجـد والشـهـرة،

والعلماء الذين ينشرون العلم، والصنف الأخير فحسب هو المؤهل حقيقة لقيادة الآخرين. (ضجة بالغة).

صـــــــوت ١٠ : فأمراؤنا إذًا غير شرعيين.

ابـن رشـــــد : أتقول إنهم غير علماء.

صـــــــوت ٧ : ما الذى يحقق شرعية السلطة؟

ابـن رشـــــد : العفة ، والعلم ، والحكمة.

صـــــــوت ٧ : على هـذا الأسـاس ينبـغى أن يخلع مـواطن مـسلم سلطانًا غير كفء ، فاسقاً، أو فاجرًا.

ابـن رشـــــد : الذى يقرر هذا هو أنت. حسب ما أرى فإن السمة الظاهرة لشرعية حاكم هى علمه، وينبغى أن يصاحبها فضائل أخرى مثل المجد، والثروة، والتوفيق، والقوة.

صـــــــوت ٢ : إلى هذا كنت أريد أن أصل. هذا يتعارض مع الجهاد، فى هذا الوقت الذى نود فيه أن نسترجع الأرض التى تركها المرابطون قبلنا مسلوبة بسبب ضعفهم، فى هذاالوقت الذى يطمح فيه شعبنا ببصره إلى وحدة العالم الدينية، فى هذا الوقت الذى تنهض فيه دولة الموحدين لتبسط سلطانها، يرفض فيه ابن رشد «فرض العين» على كل مسلم، هذا الذى نشأنا عليه نحن، ونشأ عليه آباؤنا من قبلنا والذى خول لنا العظمة والسلطان، والذى قدم بنا إلى هنا : الجهاد.

ابن رشد : لم أنكر هذا الفرض، أنا رجل مسالم، لكنى لست مستسلمًا، ما أقرره هو أنه ربما يتعلق هذا الواجب بأشخاص أهل لتحقيقه.

صوت ٢ : أتعتبر فلسفتك أرفع منه؟

ابن رشد : أدافع بما فى وسعى عن حرية العمل بالنسبة للعلماء، العمل الصامت، الشاق، المليء بالزهد، وإنكار الذات، المكرس تمامًا لخدمة الجماعة، افهمونى ، افهمونى، (تبلغ الضجة ذروتها. حتى على وجه ابن رشد).

صوت ابن رشد : كانت ساعة القيلولة، وكان الحمام يسجع، وتفوح رائحة الياسمين، حينما كنت أترجم أرسطو، فسمعت فى الشارع صوت الشاعر الصعلوك هذا المجنون ابن قزمان، وكان يتسلل صوته فى شيء من الوضوح من خلال النافذة المفتوحة بين عبق الياسمين الفاغم والورود، ماذا كان يغنى؟

صوت ابن قزمان : فمثلك أعطى، ونشط للمديح (وأثار الكراهية والحقد) [1] ومثلى أخذ، وشكر، وانصرف. (قهقهة).

وإذا مت مذهبى فى الدفن
أن نرقد فى كرمة بين الجفن
وتضموا الورق على كفن
وفى رأس عمامة من زرجون

---

(١) ما بين معقوفتين أضافه المؤلف على نص ابن قزمان .

ابن رشد : (فى حزن) فى ذلك الوقت لم أدرك ما كان يبغى الشاعر فى زجله أن يبلغه إلىَّ.

كل الأصوات : ملعون ، ملعون (مرة ، مرة ، وفى جماعات).

صوت ١ : باعتبار أن نظريات ابن رشد مؤذية ، فإننا ـ نحن العلماء والفقهاء فى قرطبة نناشد أمير المسلمين ـ حفظه الله ـ أن يعلن هذا الخطر شعبيًا ، كما يبتر العضو الأشل من جسد الجماعة الأهلية، ونتيجة لهذا نلتمس من أمير المسلمين أن يجرد ابن رشد من كل مناصبه، ومن كل رتبه، ومن كل ثرواته، وأن تحرق مؤلفاته، تعليمًا للناس، وتنكيلاً بمن يمكن أن يكون من أتباعه والمارقين، وأن ينفى عن مدينة قرطبة.

(من عدة أماكن مهمة فى قرطبة، يقرأ الحكم فقرة فقرة، أحيانا جملة جملة، وأحيانا أخرى كلمات فقط بين همس مستغرب من الناس).

صوت ابن رشد : (يغطى على تلاوة الحكم) لا تخدعوا هذا الشعب الرائع، لا تهيجوه بالباطل، لا تخدعوه أبدا، إنكم تهززونه دائمًا بين موافقته مثل الطفل كيلا يزعجكم، أو بين معاقبته فى فظاظة مثل الطفل دون أن توضحوا له السبب، تتنقلون من الديماجوجية إلى الاستبداد، احترموا شعب

قـرطبـة هذا، واحـذروه فـإنه مـثل السكين إن لم تحسنوا استخدامه فإنه يقطع أيديكم.

(فى مـيـدان منزو، وفـى الطريق الذى ينادى فـيـه بالحكم شرعوا فى إحراق كتب رشد).

ابـن رشــــد : كل إنسـان حين تجـرحه التعاسـة فإنها تجـرحه فى أعـمق أعـمـاقـه. وداعًا يا أبنائى: يا أبناء لحـمى، وأيضـا أبنـاء نفـسى، أعى أنه فى يوم مـا ستنتهى حمى الاتهـام هذه، وإفنـاء عمل الغـيـر العسـيـر، وسـتـزول هـذه البـلادة، وذلـك الحـزن، وسـوف تسـتـمـرون من بعـدى تحكمـون، وتعـملون فى قـرطبـة، أننـى أدرى ذلك : هـذه مـدينة هادئة، لكنها لا تنسى، وشعبها عـادة أفضل من حـاكمـيه، سـيـزول هـذا الحـقـد، سـينتـهى هذا الهـوى غـيـر المسوغ للحرب التى تدمـر قبل كل شىء أكثر الناس منهـا قـربًا. وسـوف يزول العـامل الهـدام بالنسـبـة لأولئك الذين يمارسـون السـلام والعلم والحـوار، لكنى لن أحيـا، حتى أرى هذا، لن أرى قـرطبة بعد ذلك، حبيبتى، ولن أرى نجـومها الكثيـرة السـهـاد والتى طالما كنت أرعـاهـا، ولا هـواءها الذى خـبـرته فى تأن، ولا هزات أرضها التى استطعت أن أعلنها قـبل حـدوثهـا، لن أرى بعـد ذلك هذه الأرض، ولا هاته المناظر، ولا تلك الأم التى كـانت مـهـيـئة

لاستقبالى، يا أسفًا على قرطبة. التى تنفى علماءها، وأبناءها البررة، وتطفئ أنوار الذكاء، وتشعل الجذوة المعادية، وتنفى شعراءها، وتمجد الذين يستبدون بها. وأسفًا عليك ياقرطبة. أنك هجرت الشروع فى الفهم، وكذلك وأسفا على ، فإننى أفقدك، وأأسفا على حين أكون على عتبة الموت يقصوننى عنك، حين احتجت إلى جوك يهجر الزرزور شجر الزيتون، (يأخذ الصوت فى التلاشى) وداعًا قرطبة، وداعًا، سأسقى أرضًا أخرى بدموعى، ستوارى أرض أخرى هذا الجثمان الذى منحتنى إياه، وداعًا، وداعًا.

# (٢)

# الزهـــراء

**(يخرج آخر فوج من السائحين بعد رؤية أطلال مدينة الزهراء، يغلق الحارس باب الدخول من السور، بعد ذلك يعود إلى مسكنه، يقترب الغسق، نستمع إلى رفرفة حمامة بيضاء، يشوبها سواد على شكل طوق، تحط فوق أعلى مكان من الطلول، تترقب، تتهادى، تقف، تختفى وراء تاج عمود أو سارية، وحين تظهر ثانية نرى الزهراء)**

الزهراء: (باحثة عن أحد) عبدالرحمن.. عبدالرحمن الناصر.. عبدالرحمن.. (فى حزن) لم تأت اليوم كذلك، لقد أزهرت أشجار اللوز ألفا وثلاثمائة وخمس مرات منذ أن مضيت، منذ أن أغمضت عينى، ومنذ أن بسطت يدك يا عبدالرحمن مغطيا وجهى بآخر قناع، ألفا وثلاثمائة وخمس مرات اختلفت إلى هذه المدينة حيث أبرمنا معاهدة أنت تنقضها يا عبدالرحمن أين مضيت؟ أين اختفيت؟ إن ظلت واقفة هاتيك الأعمدة منذ

ذلك الحين، وتلك المآذن السامقة، وهذه الجدران المطرزة منذئذ فريما أفكر فى أنك ستخرج ضاحكًا من خلف أحد الأعمدة أو المآذن أو الجدر التى اختفيت وراءها كما كنت تلعب أوانئذٍ.. لكن ماذا بقى هنا مما كان؟ حجارة، حطام، حجارة آلت حطاما، وحبى، ... بل حبنا ياعبدالرحمن: فى ذرع الزمن والرجال أن يأتوا على أجمل مدينة عرفها الزمان والناس، بيد أنه ليس فى وسع قوة أن تأتى على هذا الحب الذى من أجله شيدت هذه المدينة، فوقها يا عبدالرحمن كانت تقف الكواكب من أجلى وأجلك، شكرا يا حبى لأن كل شىء تحول فى يديك إلى معجزة، لأننى بجانبك ـ طوال الوقت ـ أقنعتنى بأن الموت لم يكن مدعوًا على مائدة أعيادنا : وأننى كنت خالدة، وأنت خالد، وخالدة كذلك أفراحنا، شكرًا يا حبى، يا عبدالرحمن، من أجل المعاهدة التى أبرمناها معًا تحت هذا القمر ذاته الذى كان يفضض الحدائق، ويرطب الأبهاء بالضياء، ويتلألأ فى الغدران، معاهدتنا التى أبرمناها أول مساء...

عبدالرحمن : (خارج المشهد) سأبتعد عن كل ما يبعدنى عنك، وسأنأى عن كل ما يقصينى عنك...

الزهراء : (خارج المشهد) (كأنه صدى) سأنأى عن كل ما يقصينى عنك...

عبدالرحمن : (خارج المشهد) كونى وفية للعهد مادمت أنا وفيًا.. أن تكونى محبوبة يقتضيك أن تكونى محبة..

الزهراء : أين أنت يا عبدالرحمن الناصر؟ آه!! ما أقرب ماكنا، وما أبعد ما نحن اليوم!! كم مرة حتى الآن على أن أهبط قبل أن أستقر من جديد بين ذراعيك؟ لأنه ليس ثمة امرأة كانت محبوبة مثلى، لكن ليس ثمة امرأة كذلك كانت عاشقة مثلى.

**(منظر لمدينة قرطبة، ربما من فوق منارة الكاتدرائية الجو ليلاً).**

الزهراء : أذكر أول مرة رأيتك فيها، كانت فى بهو البرتقال بالحامة الكبرى: فى مكان كان قلب مدينة قرطبة حينما كانت قرطبة قلب العالم، وأنت، أول خليفة أموى يستقل عن خلافة بغداد تتعايش هنا كل الأجناس، كل الأديان، يؤمها علماء من فارس، وبيزنطة، معماريون من دمشق والإسكندرية، موسيقيون، وشعراء من كل فج عميق، وقرطبة المدهشة المذهلة، كانت تحتوى الجميع، وكنت الملك الأكثر حرية وثقافة فى كل الممالك: حيث كان الحداد يلبس البياض، وحيث كانت الراية أيضًا.. كان ملوك النصارى مثل عمد القرى،

ويعيشون عيشة عُمد القرى حين يقارنون بك، كنت تتلقى هدايا هائلة من ملوك بعداء، وأجمل السبايا من كل الأصقاع.... وكنت أنا واحدة منهن، عبدالرحمن، يا حبى....

**(قريبًا من نافورة بهو البرتقال، خارج المشهد، كل الحوار الآتى والوقت نهارا).**

الزهراء : حدث ذات صباح، استمعت هنا - مذعورة - حديثًا بلغات شتى... كنت قادمة من البيرة، قروية، من سييرا نيفادا كنت بين زميلاتى مثل شاة تنتظر المدية، كانت تسمع نواقيس المستعربين، وأصوات المؤذنين، وكان الهواء يفوح برائحة أزهار البرتقال...

عبدالرحمن : (خارج المشهد، كأنه يتذكر) كان الهواء يفوح باسمك يا زهراء...

الزهراء : كان عالما جديدا جدا بالنسبة لى، قد وصلت من جليد جبالى.. وصلت فى إبريل، حيث كانت فى ظلال انتصاراتك، الممتدة حول البهو، كان الفقهاء يقننون العدالة، والأساتذة يلقون دروسهم والأثرياء يتنافسون فى مزادات المخطوطات والأعمال الفنية الغريبة، والشعراء الفتيان ينشدون قصائدهم الغزلية، ويطالع العلماء متربعين فى ضوء الشمس، والقيان يعزفن ويغنين

أغنيـــات من بلادهن، وتشـــمخ الراقـــصـــات بصــدورهن فى الرقــصــة... وأنا أنظر كل هذا مذعورة مثل شاة تنتظر المدية، كنت فى الخامسة عشـرة من عـمرى، وكـان الهـواء يفـوح برائحـة البرتقال.

عـبـدالرحـمـن : (خارج المشهد كأنه يتذكر) كان الهواء يفوح باسمك يا زهراء....

الـــــزهـــــراء : موجة من الضجة، وحدوث حركة مفاجئة، الخليفة وصل. رأيته عبر وجوه كثيرة أخرى، لم أكن رأيتـه من قبل، لكنى عرفت من هو... كنت أنت يا عبدالرحمن. كان يتخلل شعرك الذهبى شعرات فضية، رأيتك هادئًا، عذبًا، فكرت: «لابد أن يكون المَلَك ـ بفتح اللام ـ على هذه الصورة» فجأة وقفت الحاشية، وقفت حين وصلت إلى مكانى، وبإيمـــاءة منك أقـصـيت الذين كـانوا يفـصلون بيننا، ودون أن تطرف عينك، ودون أن تبسم، ودون عجلة اقتربت منى مثل من يقصد هدفه مباشرة، ومثلما تشعر شاة بشفار المدية شـعـرت بنظرتك، أطرقت برأسى (تفــعل هذه الحركة)..

عـبـدالرحـمـن : (خارج المشهد) ما اسمك؟

الـــــزهـــــراء : (خارج المشهد) الزهراء يا سيدى.

عبدالرحمن : (خارج المشهد) كل شىء يفوح هذا الصباح برائحة الزهر، هذا الصباح كل شىء يفوح باسمك ليحفظ الله من سماك الزهراء.

الزهراء : (فى المشهد) سمونى بالزهراء حين ولدت، أن قدرى لم يصنع شيئا سوى تقبل الاسم الذى خلعوه علىَّ.

عبدالرحمن : (خارج المشهد) سأفعل ما يجعل لاسمك الذكر الأبدى.

الزهراء : (فى المشهد) لقد شيدت مدينة الزهراء ياعبدالرحمن، لم تر أعين الناس، وما رأت، ولن ترى مدينة مثلها.

(مرة أخرى بين الطلول).

الزهراء : لقد اتفق كل العالم على أن يشيد هذه النادرة. امتلأت البحار بالسفن المقلعة من إفريقيا، وسورية، وإيطاليا واليونان محملة بالهدايا من أجل مدينة الزهراء، وقدم من تونس وميديا اليشب الأخضر والوردى، وما بقى من قرطاج أحضروه إلى هنا، وأرسلت روما الأعمدة، ومن بيزنطة الأحجار السماقية والفسيفساء، ومن طاراجونة ومالقة والمرية الرخام الخمرى والأبيض والمجزع، لقد آضت مدينة الزهراء تاج العالم، هنا كانت الأحجار مثل الزهور، وكانت

الزهور أحجارا ثمينة، لقد رصعت بطانة السقوف بلآلئ مجسمة، وتحت الأرصفة كانت السواقى تصدر أنينا على ثمانية وثلاثين نمطا مختلفا لكى تثير النفس، أو تهبها الإغفاء، أو تهدهدها، كان فى المدينة أكثر من ستة آلاف عمود، وأكثر من خمسة عشر ألفًا...

عبدالرحمن : (خارج المشهد) سأفعل يا زهراء ما يجعل لاسمك الذكر الأبدى.

الزهراء : فى اليوم الذى أحضرتنى فيه، فرشت الطريق بنثار الذهب والناردين، والقرفة كيلا تلوث الأرض أقدام العبيد الذين كانوا يقلون هودجى، هذه هى الغرفة التى التقينا فيها أنت وأنا، كانت أقباؤها العالية مرصعة بالذهب والفضة، هنا كانت البحيرة التى كنت أستحم بها، المشيدة باليشب الأخضر المرصع باللآلئ و حولها اثنا عشر حيوانًا مصوغًا من الذهب الأبريز، تلفظ المياه من أفواهها، وعلى إيقاع هذه المياه قلت لى ذات يوم...

عبدالرحمن : (خارج المشهد) كم أود أن أفتح فؤادى، و أضعك بداخله، ثم أغلقه، كيلا تستطيعى السكنى فى غيره حتى يوم النشور.

الزهراء : هنا عانقتنى بعنف يا حبى ذات أصيل، وضمتنى

ضم الكمى سلاحه، وتدلت ضفيرتاى من عند كتفيك مثل حمالتى السيف.

عبدالرحمن : (خارج المشهد) فى المساء نمت فوق قلبى، وبرفق، زحزحتك عن ضلوعى كيلا تنامى على وساد خافق....

الزهراء : لقد نظمتنا يد الحب للسرور والجمال: كنا مثل الخرز وكان الحب مثل الخيط.... (فى شكوى) من الذى استطاع أن يقطع هذا الخيط يا عبدالرحمن يا حبى؟ قل لى من الذى استطاع أن يتعدى عليك أيها الناصر.. (فى مكان آخر من الأطلال) كان هذا هو قاعة سفرائه، بجدرانها المرمرية القوية بزخرفتها المفرغة، بأبوابها الثمانية من الأبنوس والعاج وبطانة سقفها مرصعة باليواقيت، والعقيق، والجزع، وبحيرة الزئبق الضخمة تبهر من كان ينظر إليها، كما تبهر من ينظر إليك ياعبدالرحمن يا حبى، أين ذهبت؟... هنا عذلك نصرانى أن تتوله بقينة مثلى، وأنا أعبر المشربية سمعتك تجيبه.

عبد الرحمن : (خارج المشهد) لو كان فى ذرعى أن أسيطر على حبى ربما لم أحبها، بيد أن سلطانى لا يصل إلى كل هذا، لست أحبها لحلاوة مقبلها، ولا لوميض عينيها، ولا لجفونها المراض، لست أهواها لأن

من بين أصابعها تثب متعتى، وتلعب كما تلعب
الأيام مع الآمال، لست أهواها لأن جسدها يمثل
لى الربيع الوحيد، لست أحبها لأننى حين أراها
أشعر بالرى فى الحلق، وبالظمأ الحارق فى
الوقت ذاته، أننى أهواها ببساطة، لأنه ليس فى
وسعى صنع شىء غير أن أهواها.

الزهراء : من الذى جذم آصرة روحينا يا حبى؟ من الذى
حل الأنشوطة المعقودة فى يدينا؟ منحوس،
منحوس، منحوس، كنا فى الغسق جالسين بين
زهر الأنيمونى، بالقرب من السنبل البرى، وعلى
شاطئ البحيرة وارف النيلوفر حين سمعنا
بوضوح صوتًا واضحًا يا حبى..

صوت رجل : رغبتم فى تشييد مدينة خالدة، رغبتم فى بناء
مساكن أبدية، ستعلمون قريبًا أن فىء عوسجة
يكفى أن يصل مجهدًا فى نهاية رحلته، (يُسمع
صراخ، خارج مدينة الزهراء).

(فى خارج المسجد).

صوت : إنكم قد أثرتم غضب الله، ومن أظلم ممن منع
مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وسعى فى
خرابها، أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا
خائفين، لهم فى الدنيا خزى، ولهم فى الآخرة
عذاب عظيم، ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا،

فثم وجه الله، فاتقوا الله، ومارسوا السلام مع إخوانكم، لعلكم ترحمون.

الــــزهــــراء : (ذاهبة نحو المحراب) هنا مكان مقدس، كل الناس ذكروا هنا خالقهم أيًا كان الإسم الذى أطلقوه عليه، هنا تعبد الرومان، وأمم أخرى خلت من قبلهم ومن قبل النصارى والمسلمين، ثم من جديد يتعبد لنصارى، لكنها أمة فى أثر أمة، ومع ذلك فإنه شىء جميل فى مكان مثل هذا، قريب من النهر، بين الجبل والقرى أن يعبد الناس جميعًا مرة واحدة هذا الذى خلقهم على صورته: كل هؤلاء الذين استقروا بجانب النهر العريق، بين الجبل وبين الريف، تبارك الله القدير (مذعورة) الذى يحيى ويميت وإليه النشور.

صــــــــــوت : وإذ قال إبراهيم، رب أرنى كيف تحيى الموتى، قال أو لم تؤمن قال بلى، ولكن ليطمئن قلبى، قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءًا، ثم أدعهن يأتينك سعيًا، وأعلم أن الله عزيز حكيم.

الــــزهــــراء: (بين الأعمدة) ياعبدالرحمن، يا عبدالرحمن، لماذا كل عمود يباين الآخر هل لكيلا ألقاك يا عبدالرحمن؟ (بقعة على سطح المرمر فى احد الأعمدة تذكر بوضوح رأس عربى، تقبله الزهراء).

صـــــــوت : سبح اسم ربك الأعلى، الذى خلق فسوى، والذى قدر فهدى، والذى أخرج المرعى، فجعله غثاء أحوى.. سبحوه سبحوه (أطلال مدينة الزهراء) لم يكن هذا بسبب سخط البرير، بل بسخط الله الذى أتى على كل هاته العظمة لكى يتذكر الناس أن تسامحه ليس مطلقا، وأن حبه ليس مطلقا، وكذلك ابتلاءات حبه غير مطلقة.

الـــزهــــراء : كانت هذه المدينة تسمى الزهراء، لم تدم أكثر من عمر زهرة، لكن ماذا يعنينا؟ إن حبى لك ليس فى حاجة إلى الحياة لكى يظل متوهجًا.

عبدالرحمن : (خارج المشهد) على كل هذه الأحجار أمرت أن ينقش حبى لك، فإذا حدث فى يوم ما أن داهمها خراب جعل عاليها سافلها فإن كل بقية من بقاياها تشهد على الحب (الزهراء تتأمل زهرة فى وسط الأنقاض) اقطفى هذه الزهرة الآن وبعد ذلك بمجرد النظر إليها تتحول إلى لاشىء...

(فى الحدائق المزهرة فى القصر القديم، على شاطئ نهر الوادى الكبير).

الـــزهــــراء : ذات يوم، كنت أرى الماء يجرى كثيفًا مثل الزيت، وبين الطواحين قلت لى..

عبدالرحمن : (خارج المشهد) لوددت أن أبين لك أنه لا أحد فى

هذا العالم أحب أحدًا مثلما أحبك أنت، ماذا أستطيع أن أفعل؟

الزهراء : (خارج المشهد) حدق فىَّ يا عبدالرحمن، حدق فىَّ، إن الله خلق أمته على عينه، حسبى هذا لأعظم الله فى نفسى، (حاضرة) هكذا أجبتك... منذ ذلك اليوم، آه أى نحيب قد حملته المياه، لكنك أصررت.

عبدالرحمن : (خارج المشهد) ماذا ينقصك يا زهراء؟

الزهراء: (كأنها تلعب) (خارج المشهد) إن قرطبة مرآة العالم ياعبدالرحمن: عقده الفريد، إنك وهبتها الجمال والسلام: هذان هما ينبوعا الحكمة، لكن قرطبة يعوزها شىء ما،. كان لدى فى جبل البيرة قبل أن أعرفك.

عبدالرحمن : (خارج المشهد) ما هو يا زهراء ؟ قوليه لى، وستجدينه هنا أيضًا.

الزهراء : (خارج المشهد) ليس فى الإمكان، إن الله قد صنع بإرادته الجبل والسهل، والحر والقرور، يطلقون على جبلك هنا اسم الجبل الأسمر، ويطلقون على جبلى جبل الثلج، و أنا منذ طفولتى أقضى أصيل الشتاء أرقب فى ذهول سقوط البرد، ولا تعرف قرطبة الجليد، وأنت يا عبدالرحمن ليس فى ذرعك مع كل سلطانك أن تجعل قرطبة تثلج.

عبدالرحمن : (خارج المشهد) ستثلج من أجلك يا زهراء، يا حبى، سأجعلها تثلج.

الزهراء : غطيت بأشجار اللوز جبل العروس (جبل المحبوبة) ياعبدالرحمن وآض جبلك الأسمر أبيض من الحب مثل العروس، أبيض مثل جبلى، وفى الصباح حين أرى الجليد المعطر ظننت أنى أموت من الحب وكل عام كثيرًا ما كنت أهبط فى اليوم الذى تزهر فيه أشجار اللوز لأقدم لك شكرى.. شكرى على حنان جليدك وحرارته يا عبدالرحمن يا سيدى، سيدى، سيدى أنا..

(فى متحف الآثار صاعدة نحو القاعات العربية).

الزهراء : لا يكاد أحد الآن يتذكر إلا يجد شواهد الحب الكثيرة باردة ومرتبة ها هو المرمر المهشم حيث أمرت بحفر العهد فى أول ليلة: «سأبتعد عن كل ما يبعدنى عنك» ماذا حدث للجزء الآخر.

«سأنأى عن كل ما يقصينى عنك».. الأمر سواء حيث يكون:

من الممكن أن يتهشم المرمر، لكن عهدنا لا يا عبدالرحمن (امام مائدة عليها جواهر) إنها جواهرى، كانت جواهرى، الجواهر الدون، المحتقرة من كل السلب (ترفع الغطاء الزجاجى، تتقلد عقداً).

عـبـدالـرحـمـن : (خـارج المشـهـد) إن نحـرك رقـيق جـدًا يا زهـراء، شـديـد الرقـة لـدرجـة أن جـواهـر الطوق تميل به (تلبس الزهراء أسورة تتسق تمامًا مع معصمها) إن جلد معصميك هائل الرقة حتى الأساور تدميهما.

الـــزهـــراء : (تشـرب كـأسًا) ذات مسـاء، تحت شـمس زعفـرانية متكئين على مخمل الآس، مترنحين من السعادة، لم يكن أحد من الملوك مـثلك، أنا وأنت فـحسب ياعـبـدالـرحـمن، شـربت نبـيـذًا أصـهب من هذه الكأس، على حـافتها ظلت شفـتاك بعض وقت.. (تكاد تبكى، تجيل شفتيها على دائرة الكأس)، بعـد ذلك حـضـرت سكرة الموت، وحلم الموت (تـقـع الـزهـراء مـتكئـة فى إحـدى القـاعـات فى أطلال مـدينة الـزهـراء) جاءت ليلة الخطر، والفراق.

صـــــــوت : لقـد أجـتنبـتم مـا أمـر الله به، سـوف يـجـرفكم بماحقـة، تحاولون التوحد وليس ذاك بمتيسر، لن يدافع عنكم أحـد، لأن الله مـسك السـمـاء بيـديه خلقها فى راحـة، وجعل الأرض مشاعًا، خضـراء، ذات أنهـار عـراض، وأنتم أردتم أن تجـعلوا لـكم وحدكم سماء فى الأرض.

الـــزهـــراء : لا شىء يقف أمـام قضـاء الله. (اصوات قـصـيـة من عبدالرحمن، فى نشيج تنادى الزهراء) هاته الأصـوات أطلقـتـهـا منذ ألف سنة وأكـثـر فى هـذا الوادى

رغبنا فى البقاء، يا حبى، بيد أنا لم نستطع، الإنسان بدوى راحل ليس فى ذرعه اللبث: الفرار، الفرار، تذوى الغلال، ويذبل شجر اللوز، تتلاشى الكلمات، والفرسان الذين امتطوا صهوة الجياد فى خيلاء يهوون إلى الأرض، والأسقف المذهبة تخر على الأرض، والجمال الذى تكلف سنين عددا لكى يتم نسفه ويسقط فى غمضة عين، لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، لا شىء يقف أمام قضاء الله، لقد دمرت بغداد قبل قرطبة، وأتى الدهر على عاشقين قبلنا، ياعبدالرحمن لم تحسن صنعا أن أطلقت على هذه المدينة اسمى، إن الزهر لا عمر له تقريبًا، وداعًا أيها الشرفات المنطفئة، والبقايا المجهدة التى شاهدت سعادتى، وداعًا شفافية النسيم، وداعًا أيها الشهود،... سيأتى يوم تتجمع فيه عظام الزهراء، تكتمل فيه أنامل أصابعها، يوم تضغط فيه يداى على يدى من هويت، إذا خسف القمر، وإذا الشمس كورت، وإذا النجوم انكدرت، حين تخضر وجوه من يعيشون الآن، ويبحثون عن ملاذ دون أن يصادفوه.. لأننى أقسم لكم أن الحب لن يموت: إننى من الحب وللحب خُلقت، لهذا حين أعود

إلى الحياة - فالأحجار وأشجار اللوز، والمنارات الهاوية، والرياحين، والنخيل، والأقواس، والمعادن، والروعة البائدة - يا مدينة الزهراء فإن كل بقاياك حيث كانت قصية، أو غائرة ستئوب إلى مكانها حيث وضعها الحب، لأنك يا مدينتى أنشئت مثلى من الحب وإلى الحب... (إلى الداخل) وأنتم أيها العشاق أحبوا دون أن تضيعوا لحظة واحدة. قبلوا ضوء الشمس، أو ضوء القمر (يبدأ الصبح يتنفس) هذا الضوء الذى يبحث عنكم مجتهدًا قرونًا إثر قرون لكنه يبحث عن قبض الريح.. مثلما بحث عنى ولم يلقنى (تختفى الزهراء حقيقة وراء احد الأعمدة) وداعًا أيها العالم الذى عشقت فيه، والذى كنت فيه معشوقة، (وراء العمود تنهض حمامة، هى التى كانت فى البداية، تطير نحو جهة لا تدريها).

# (٣)

# المنصور بن أبى عامر

(فى مسجد قرطبة، فى الجزء الذى شيَّده الحكم الثانى).

المنصـــــور : أبو الحسن بن جعفر بن عثمان المصحفى، أتبايع هشام الثانى بن الحكم الثانى خليفة بفضل الله القادر.

صوت المصحفى: أبايعه.

المنصـــــور : (تأخذ الأصوات فى التلاشى شيئًا فشيئًا) محمد بن حفص بن جابر.

صــــــوت ١ : أبايعه.

المنصـــــور : عبد العزيز بن حدير بن عذارى.

صــــــوت ٢ : أبايعه.

المنصـــــور : عبد اللّه بن برطال.

صــــــوت ٣ : أبايعه.

المنصـــــور : أبو أسحاق بن محمد الأفليلى.

صــــــوت ٤ : أبايعه.

(فى حدائق القصر).

صـــبـح : قـد عـرفـتك منذ تسع سنوات يا أبا عـامـر، ومـا رأيتك مطلقًا بعيـد الغور كمـا أنت الآن، كنت هذا الأصيل رائعًا جدا أمام الناس وأنت تأخذ البيعة، إننى أحـبـبـتك يا أبا عـامـر.. فى أى شىء تفكر؟
(متهكمة)
أتشـعـر بالأسى لموت الحكم؟ لم يكن زوجًا بل لم يكن رجـلا، من الأفـضل أن أكـون أم الخليـفـة الجديد.

المنصـور : خليفة فى الحادية عشرة يا صبح !

صـــبـح : لا تنادنى هكذا، أن اب ابنى أطلق على اسم غـلام: جعفر، أن قـرطبة تدعونى «صبح» وأنا يروق لى أن ينادونى كما كانوا ينادوننى فى وطنى البسكى.
إن اسمى أورورا بالنسبة لك.

المنصـور : فى يوم مـا سأغيـر اسمى أيضًا بالنسبـة لك، فى يوم ما سأسمى نفسى المنصور.

صـــبـح : (ضاحكة) المنصور هذا لقب قائد جيش، ليس لقب رجل سيـاسى مـثلك يا أبا عـامـر، يجـب أن تدعى «الطموح» وليس «المنصور».

المنصـور : لماذا ؟

صـــبـح : لقد وصلت إلى حيث أنت، حتى أنا نفسى لا أكاد أعرف من أين جئت.

المنصـور : أين أنا؟

صـــــــبـح : انظر يا أبا عـامـر . يا للأسف إنك لم تـر نفـسك اليوم فى المسجد.

المنصـــــــور : (خـارج المشـهـد، ناظرا نحـو الـوادى الكبـيـر) هذا الجسـر أول مـا أذكره من قـرطبـة، إننى قدمت من طورش بنجــانب وادى آرو كنت فــتى يقظاً، قـليل الابتسـام، تروق له النسـاء كثـيرا. (ضفـة بجـانب أبوالعـافـية) جئت لدراسـة الفـقـه والبـلاغـة، فكل أسـرتى فـقـهـاء، قليل منهـا درسـوا الطب. كم مـرة رأيت فـيـهـا أصـيـلا فـوق المياه المتبـاطئـة عظمـة الشـمس، وهـى تذهـب الـريض، كم حلم من أحــلام العظمـة دون مـعنى حمله نـهـر الوادى الكبـيـر نـحـو أشبيلية.

مـا أشق أن يتطلع إنسـان إلى الحكم ولم يولد حتى ولو من بعـيـد فى مـدارج العـرش (مـجـمـوعـة من الفـتـيـان). «فـتى مـجنون مـحـمـد بن أبى عـامـر المعافرى، فتى مجنون» كنت أردد هذا بنفسى. وبين رفـاق الدرس كنت أتعـامل كـأنى لـن أمـارس الفـقـه أبداً، أشم، قصيا «سيكون أبو عامر قاضى قرطبة» وكـانـوا يرددون هـازلين: «أو وزيرا، ألا تـرون؟» ينظـر إلينا فى ازدراء «لـكن لن يـكون أبوعـامـر فـقـيـهًا صـالحًا على الإطـلاق» كـان صـحـيـحًا: كم كنت أضـجـر من الفـتـاوى التى لا حصـر لهـا، والأحكام

المحفوظة عن ظهر قلب، وحيل المتفيهقين (خارج كنيسة القديس بارتولوميه) عند احدى البوابات، قريبًا من القصر ومن النهر نصبت مكتب الدعاوى هنالك كان يقصدنى العوام كي أكتب لهم عرائضهم، التماساتهم، كتبهم إلى الوزراء أو القضاة، كان يؤلمنى معصمى من الكتابة طوال اليوم. عامان اثنان - عامان فظيعان طويلان - قضيتهما هناك. أخفقت أحلامى فى السلطان (جدران قرطبة) تزوجت ليس يعنينى بمن، كانت الذلفاء زوجى الأولى، ثم تعاقبت آخريات، عندما قدمونى لأعمل كاتباً فى معية قاضى قرطبة، علمت أن آمالى أخفقت . (بهو: بيت دى لاس ثياس، أو قصر بيانا) موظف تافه إلى الأبد. مساعد قاض تفوح منه رائحة المداد والورق كل الوقت، معذباً تحت الأسقف الخانقة، بينما السلطان فى الخارج يتمطى تحت السماء الرائعة الزرقة، وكذلك المتعة فى أن تكون مطاعًا، لأنه ما الحياة الحقيقية دون هذا؟ ثمة أناس أكثر سعادة على نمط آخر، يحيون على ألف طراز من الحياة، لكن عالم السلطة شىء آخر بعيد عن السعادة، شىء لا يمكن مقارنته بأى شىء، شىء يماثل سلطان الله، وتعالى الله عن أن يكون بائسًا شقيًا،

أنه القاهر وكفى.. هكذا كنت أرى الأشياء، وحين كنت فى السابعة والعشرين من عمرى، فى ركن أحد الأبهاء أكتب محضر دعوى دعونى إلى القصر، وتحدث إلى الوزير المصحفى، حسبت أن كل هذا أضغاث أحلام، مثل حكايات الشتاء التى يزعمها الزمنى، ولا تصلح لشىء.

(جدران المسجد الخارجية، واجهة غربية).

صوت المصحفى: قدم إلىَّ القاضى أسماء كثيرة، وقد اختارت السلطانة - حفظها الله - اسمك أنت، وكافأ الخليفة فى كرم واضح أم ولديه الوحيدين: عبدالرحمن وهشام، وعملك أن تكون قيِّمًا على مالهما.

صبح : فى خلال السنوات التسع التى عرفتك فيها ما رأيتك مطلقًا مشغول البال كما كنت اليوم، ما أجمل ما بدوت لى حين رأيتك فى المرة الأولى يا أبا عامر، دخلت مقصورة الحريم مثل جبريل مشعًا بالضياء، رغبت وقتها أن أدلك أنامل يديك بحجر خفاف لكى أنزع منها بقع المداد.. ماذا حدث لك اليوم؟ .

(جدران عربية جميلة):

المنصور : (خارج المشهد) وبعد ستة أشهر تقلدت دار السكة، بعد ذلك صرت رئيس الخزانة، وبعدها قاضى لبلة

وأشبيلية، وبعد قليل عينني الخليفة بعد وفاة ولدك الأكبر وكيل دار هشام، كل ذلك حين شيَّدت منزلى فى الرصافة، وانطلقت الشائعات تتهمنى بأننى أهدرت مال الخزانة، بالطبع أنفقت، كان لابد لى أسعد الحريم بادئًا بصبح، وبالأصدقاء أولى التأثير، وبالذين من الممكن أن يصلوا إلى التأثير، وبالجواسيس، وبأصحاب الألسنة، طلبت قرضًا كى أسد الخلل، وبهذا طمأنت شكوك الخليفة إلى الأبد، فقلدنى رئيسًا للشرطة وبعد أشهر قلائل إدارة الفرق التى مضت لحرب الأدارسة فى إفريقيا وخلالها عرفت غالبًا قائد الثغر الأوسط، وعند قفولى عينونى مراقبًا عامًا لجنود الجيش.

صبح : أبا عامر، ياحبى، ستقول لى ماذا حدث لك اليوم أم لا؟

المنصور : بلغت السادسة والثلاثين من عمرى، وكل المناصب التى تقلدتها مناصب إدارية بحتة، لا أحد منها يحمل شارة السلطة.

صبح : (ضاحكة) «الطموح» لقد توسمت فيك هذا، الجو يبرد، هيا إلى الداخل (من الحديقة يعبرون إلى قاعة داخلية).

إن الوزير المصحفى، وأنت وأنا الذين بيدنا الآن مقاليد الخلافة (فوق مائدة مرصعة علبة شطرنج

تشرع صبح فى الإشارة إلى قطع سوداء : الملك) ولدى. (الملكة) أنا. (طابية) الصقالبة. (طابية أخرى) وجوه الناس. (حصان) البربر، (حصان آخر) الجيش. (فيل) المصحفى، فيل آخر. (أنت).

المنصور : يعنينى أيضًا الصف الأول. والقطع الأخرى البيضاء، لست أمثل أية قطعة يا أورورا، كل ما وددته طوال حياتى أن أكون اليد التى تحرك الشطرنج.

(صالة قصر، من الممكن أن تكون إحدى قاعات المسجد، أو قاعة القديس فرناندو مثلا).

المنصور : إن الخليفة مازال حدثًا، وأنت سيدة، وأنت الحاجب أنكما أنتما اللذان تقرران خطة الملك، إنهم يقطعون الطريق عليكما، وأنتما تعرفان، وكل قرطبة تعرف هذا، لقد تواطأ الصقالبة حيت مات الحكم، يريدون تنحية ولدك، وقد حلنا دون ذلك، لكن فائق وجؤذر وهما الرأسان، مازالا، دون عقوبة.

المصحفى : فى قرطبة ثلاثة عشر ألفًا من الصقالبة وهم خطيرون، متحدون جدًا ويحظون بمزايا هائلة منحها إياهم الخلفاء السابقون، فإن فائق الرئيس الأعلى لفتية هذا القصر، وجؤذر هو قائد الحرس الخاص، ولديهما خدم لا يحصون، أننى أخشى..

المنصور : (مقاطعاً له) إنهما خصيان يامصحفى، مهما تملك أيد خائنة من سلطات فإنها تصنع خونة أكثر، إنكما انتما اللذان يجب عليكما أن تقطعاها، أننى - فى الواقع - ما زلت وكيل الأموال، وأنت يا مصحفى خذ فى حسابك مواطنيك البربر، وأنت أيتها السيدة وجوه العرب، وأنا بتحركاتى وصداقاتى أدرك أن الفكرة تروق الشعب كله الذى يمقت الصقالبة لعجرفتهم، وجهلهم، وقساوتهم، ليس الأمر فقط تطبيق العدالة: لكن الأمر هو الاختيار منهم ومنكم: الخليفة وأمه محجور عليهما فى الواقع. (مداهنًا) حين تخضد شوكتهما من المناسب أن يزهو المصحفى بلقب حاجب: أن أوامر الحاجب لا ترد. ما رأيكما؟

صبح : رتب الأمر فى سرية يا مصحفى مع فائق وجؤذر، ليس من الملائم أن تشرح لهما السبب: فإنهما يدركان العلة. أن أبا عامر على صواب، فسحق الصقالبة ليس بداية رديئة لسياسة مملكة، وستكون أنت أيضًا أكثر أمانًا.

المصحفي : إن اللّه يلهمك ياسيدتى، وأنا أطيع، شكرًا أبا عامر، فى اليوم الذى أكون فيه الحاجب، فمنْ مثلك يحلى محلى فى دست الوزارة؟ هكذا ينتهى مدرج ارتقائك السريع إذ أهنئ نفسى أن عاونت فيه.

(قاعة فى بيت المنصور)

المنصـــــور : (يطرح طابية الشطرنج).
هكذا رأيكم فى الحاجب الجديد؟

صـــــوت ١ : ليس لأننا فى بيتك أيها الوزير، فإنك تعرف أن قرطبة، تعبدك، أنك عادل، وعظيم، أما المصحفى فأنه بربرى دخيل، وبخيل، دس أنفه فيما لا يعنيه طوال عهد الحكم، لقد حان الأوان ليذهب.

صـــــوت ٢ : إن الأسر ذوات النسب لا تبتلعه، لقد امتلأ بالذهاب وصار مثل الضفدع فارغًا، أسرته خشنة جدا كأنها لم تفارق إفريقيا.

صـــــوت ١ : يؤلمنا أن يحكمنا رجل نحتقره.

صـــــوت ٢ : بضربة تقضى على المصحفى، يتلقى البربر درسًا جيدا، أولئك البربر المتغطرسون الحمقى مثلما كانوا عليه من حوالى قرنين ونصف حينما قدموا إلى الأندلس.

المنصـــــور : إن أسركم ـ وأسرتى ـ وصلوا إلى الأندلس بعد قليل من وصول أولئكم.

صـــــوت ٢ : نعم. لكن ليس مع طارق: بل مع موسى، نحن عرب بلديون، لسنا بربر.

المنصـــــور : (يظهر الالتزام بالأمر) علينا أن نتعاون مع الجيش، علينا أن نتعاون مع القائد غالب، سيفعل ما يمكنه لو ألحفتم كثيرًا.

(القصر الملكى).

المنصـــور : يتكاثر النصارى يا أورورا، يهاجمون الثغور ظانين أن الخـلافـة واهنة، من أجلك ومن أجل ولدك أنا مستعد لصنع أى شىء ياحبيبتى، دعينى أذهب لقيادة فرقة.

صـــبح : لا يا أبا عامر، لا أريد مخاطر، أن مكان وزير هو قرطبة، هنا، والحرب من شأن غالب يقررها من مدينة سالم حيث هو.

المنصـــور : اسمحى لى أن أذهب أنا، وأن أكون الذى يطمئنك.

صـــبح : فضلاً عن أن المصحفى يقول إنه ليس لديك خبرة بالحرب مطلقًا ويستلزم حشد فرقة تكاليف جساما.

المنصـــور : ياله من بخيل لئيم، مهما كانت التكاليف، أتكون حمايتك وحماية الخليفة غالية؟ من الحسن والحرية أن نحكم أنت وأنا يا أورورا دون وجود المصحفى، مريه أن يصرح لى أن أذهب إلى الحرب ضد النصارى بجوار غالب.

(فى مدينة سالم)

المنصـــور : عندما رأيتك تحارب فى إفريقيا ياغالب أدهشتنى. لم أتطلع إلى شىء سوى أن أكون بجانبك، أحارب تحت قيادتك، وأن أتعلم فى معركة ضد أعداء الاسلام.

صـوت غـالـب: شكرًا لك أيهـا الوزير، من الذى كـان يظن أن ذلك الإدارى الصغير أوانئذ سيتحول إلى عمود رايتنا، راية لا تبـقى سـاكنة فى قـرطبـة ترتعـد، بل إنه يخاطر فى الوصول إلى هنا.

المنصـــــور : (يتـأمل المنظر) يالهـا من أرض مختلفة: نظيفـة، باردة، متـمـيزة. لرؤية العـدو يكفى الصـعـود هنا لنكون أعلى منه، وفى قـرطبـة فـالعـدو ـ مع ذلك ـ هو الذى يكون دائمًا فى المحط الأعلى، مـا رأيك فى المصحفى أيها القائد؟

صـوت غـالب : إذا كنت تتكلم عنه، فليس غـريبًا لدى أن تقـول إنه فى المحط الأعلى: أنه أكبـر مـتسلق أعـرفـه. لو منحنى مكافـأة خدماتى كما منح هو نفسه لم أكن ذلك القائد البائس، لكن آه! فإن رسوم الخدمات يقدرها هو لا أنا.

المنصـــــور : كيف يرى الشمس تغييرًا فى الحكومة.

صـوت غـالب : كما يراه الخليفة ووجوه الناس.

المنصـــــور : سأكون فخورًا أن أطيعك مثل أحد جنودك.

صـوت غـالب : تقدم. (ضجة معركة)

(فى مدينة الزهراء).

صـــــبـح : مرحبًا بك يا أبا عامر، أحبك أكثر من أى وقت، لم يدر بخلدى مطلقًا أن تكون كـذلك بطلاً. من كـان يظن أن رجلاً من سياسى البلاط يعرف كيف يغنم معركة؟ قرطبة توليك حبها، وإننى أغار منها.

المنصور : أمامك ياسيدتى، وأمام هؤلاء الحشم أنصب نفسى مديرًا لمدينة قرطبة.

صبح : بيد أن هذا المنصب يشغله أحد أبناء المصحفى.

المنصور : لهذا يا سيدتى . وقد علمت أن أسماء بنت القائد غالب طلقت من الوزير ابن حدير، أريد أن ألتمس يدها لى.

صبح : لكن غالب قد منحها إلى ابن المصحفى الآخر.

المنصور : لهذا ياسيدتى!

صبح : زوجا أخرى أبا عامر؟

المنصور : سأستعملها لإعلان حرب، لن أستطيع أن أشغل قلبى بها لأنه مشغول بك (تبسم صبح) المصحفى لا يتعاون معه أحد الآن، إنه يقف وحده. الجيش يفضلنى أنا، ووجوه الناس فى قبضتى، يريدون أن يتبوأوا ـ فى جنون ـ المناصب التى لا نهاية لها والتى قلدها المصحفى ذوى خاصته.

صبح : أفعل مابدالك أبا عامر.

المنصور : (يطرح فيلا) المصحفى ياسيدتى.

صبح : لم يبق غيرك، لقد أصبحت صاحب كل شىء.

المنصور : حتى الآن. لا، ياحبى، حتى الآن لا .

(عند المحراب)

صوت طفل : إننى هشام الثانى، خليفة قرطبة أمير المؤمنين ـ رضى الله عنه ـ أريد أن أمنحك ـ هدية زواجك ـ

لقب الوزير الأول الذى يفخر بحمله فقط أب
زوجك أسماء، غالب الشجاع، وأن أقلدك منصب
الحاجب الذى شغر بذهاب المصحفى الخائن
(يسجد المنصور باسمًا).
(داخل دار المنصور)

صوت ٤ : الذين شلهم سقوط المصحفى يوجهون التهمة
إليك، يناصرهم بعض الصقالبة الذين أغضيتم
عنهم، ومئات من المسلمين المارقين، أما الفقهاء
فإنهم لن يدافعوا عنك لاعتقادهم أنك غير مؤمن
صالح.

المنصور : عندما تقطع شجرة لابد من الإتيان على جذورها
الغائرة.

صوت ٤ : أسوأ ما فى الأمر أن شكاواهم هاته ينظمها
الشاعر الرمادى، والأهاجى حين تنظم تكون قوية
الإيقاع، وتبقى محفورة فى الذواكر.

المنصور : (أمام الشطرنج) ليشنق جؤذر الذى وهبته حياته
منذ ثلاث سنوات (يشرع فى رمى قطع الشطرنج)
ليكون عبرة للمتآمرين، وليقصى كل الرءوس،
وليقتنع الفقهاء إن المخالفين لى يهاجموننى ليس
لأننى غير مسلم صالح، بل لأننى سنى مدافع عن
المذهب المالكى. وأن ينتقى وفد منهم - من بين
الأربعة آلاف مجلد تضمها مكتبة الحكم - بعض

المجلدات التى يعتقدون أن بها هرقطة وإلحادًا !
وأن تحرق. أو ليتحول المتآمرون إلى تآمر دينى
وليس سياسيًا. وبالنسبة للشاعر - وهو صوت
الشعب - بينما أحاول أن أحمسه للتغنى بفكرة
أخرى، فليسكت : بالدينار أو بالنار حسب الذى
يريده. وأنا - فى ساعات فراغى - بجودة خطى
المعهودة سأنسخ القرآن ليكون هذا الانشغال الورع
تجربة ونموذجًا لكل المدينة، هكذا أتذكر أيام كنت
كاتبا (يتهيأ حقيقة للقيام بهذا) أن السلطة فى
يدى الآن، ويبدو لى أن الحفاظ عليها أشق من
السعى فى سبيلها.

(لوحة الشطرنج تتضح فى الظلام)

المنصور : سيكون من المناسب أن ينشغل المرء بالقطع
المتناقضة، إذا كانت هناك واحدة لم تكن
متناقضة، الذى لم يولد حاملاً لقب ملك ويود أن
يكون له فعليه أن تكون يده سخية، وضميره نقيًا،
وأن يحرز نصرًا فى الغزوات، سأغزو غزوتين كل
سنة ضد النصارى، ليس لأنهم نصارى، ولا لأن
جيوشى مبتلاة بهم، ولا لأن أمراءهم يحارب
بعضهم بعضًا مثل الذئاب، بل لأننى فى حاجة إلى
النصر عليهم كل خمسة أشهر أو ستة، كذلك فى
حاجة إلى أموالهم، للحفاظ على قرطبة سيدة

وجميلة وهو الشيء الذى يستدعى تكاليف باهظة فى هذا العالم (موسيقى حربية) سنبدأ بالثغر الأوسط (حصن غرماج، إيقاع خطابى) من هذه السفينة الراسية فى بحر قشتالة نرحل لمحاربة أعداء الله. هذا سيف نهر دويروا الفضى لابد أن يرانا قافلين فى رداء المجد، محاطين بالأسلاب والأسرى، هذه السفينة هى التى اختارها الله للوقوف على أعلى مكان، هنا مفتاح النصر، هنا طلسمه. أرى من حبل شراعها عالم الله اللانهائى الذى أهداه إلينا، فلنأخذه، لأن القدر ينبسط انبساط السماء فى أيدى الأقوياء، ويتضاءل تضاؤل الصل فى أيدى الضعفاء. النفير أيها الجنود، اغتنوا بأموال الأعادى، والتحفوا بالمجد وخلود الذكر، تحيون بقدر ما تقتحمون الموت، فإن الذين يموتون يدفنون بملابسهم ودمائهم، دون أن يغسلوا، يجيئون وأفواه جراحهم يوم القيامة ريحها ريح المسك (فى نغمة ذاتية كأنه يخاطب نفسه) كيف يسمع الصمت، لا أريد أن أسمع شيئًا، أى شيئًا، أى شىء حتى جرسا، أو عصفورا، أو رياحا، أريد أن أستمع إلى الصمت فحسب، الذى يسبق الضجة، القعقعة، فزع الحرب.

(ضجة حرب تنهيها موسيقى من البلاط)

(غرفة من القصر).

صـــبح : هل قررت شيئًا ياحبى بالنسبة لتربية ولدى؟

المنصـــور : انس هذا يا أورورا، سأسهر على رعايته ورعايتك، فليضحك وليلعب، وليصل - وليتسل مع حريمه.

صـــبح : لكنه مازال صبيًا بالنسبة للنساء.

المنصـــور : من أجل المتعة ليس صغيرًا جدًا، يا حبى أنا. لكن من أجل التعاسة والموت نعم. إنه ولد ملكا. فلندعه يكون على أفضل طريقة ممكنة، فليملك - وليتركنى - ليتركنا - نحكم، أن الحكم هو الوجه المر لعملة الحكم الذهبية.

صـــبح : لست واثقة يا أبا عامر.

المنصـــور : إن الملكية يا أورورا مصادفة : وأنت - كما كنت أمه تعرفين هذا أكثر من أى شخص آخر تدركين أن السلطة قدر، وهى قدرى، فدعينى أكمل هذه الرسالة.

صـــبح : ألا يبدو لك أن هذا تحد أن تبدأ فى بناء مدينة الزاهرة فى الجانب المقابل من قرطبة حيث توجد مدينة الزهراء مدينة الخليفة؟ أننى لست أفهمك أبدًا يا أبا عامر.

المنصـــور : الذى يمارس الحكم عليه أن يتمتع بالاستقلال.

صـــبح : لكن الشعب، وأصحاب الدعاوى، والوزراء ودواوينهم والسفراء سيتركون مدينة الزهراء ماضين إليك.

المنصـــــور : هذا أفضل بالنسبـة لهشـام، هكذا فى ذرعـه أن يستمتع فى هدوء بكل مدينته، كما أتمتع الآن بك.

صـــــبح : انتظر. فـإن غـالب أيضًا يشكو من تلك المدينة، مرتئيا أن مدينة شىء كثير بالنسبة لحاجب فقط.

المنصـــــور : بئس الحـقد ميزانًا، إن حمى من الذين يدافعون عنك، لكن حين تكونين فى المنحدر فقط.

صـــــبح : والجيش النظامى الذى كونتـه يا أبا عـامر يهينه وهو قائد الجيش الآخر.

المنصـــــور : جيشـه قد انتهى، لديه بعض فرق يابسـة وهشة، يسير على النظام القبلى، على حين انتهت القبائل بواشجـة الدم، حين يسفك الذاهب إلى الحـرب دمـــه، من اللازم أن يجـــدد كله وأن يصلح كله، فالجنود المسرورون والمدفوع لهم جيدًا لا يقهرون يا أورورا، علىَّ أيضًا أن أصلح غالب.

(فى قمم أتينشه)

صـوت غـالب : محمد بن أبى عامر خائن بنى أمية، وإننى ـ غالب ـ أتحداك أمام الله لأبرئ دينى، وشعبى والخليفة الذى أسـرته من حكمك المخـادع (يخـيم صـخب حرب على المنظر، ثم يهمد)

المنصـــــور : أطيحـوا برأسـه، وابتـروا يده اليمنى، ولا تقـربوا خاتمه واحملوه فى صندوق إلى الزاهرة، وسلموه إلى زوجتى، ابنته فإن الله هو المحيى وهو المميت

(يطرح الفيل من فوق مائدة الشطرنج).

(القصر الملكى)

صبح : يعرفونك فى قرطبة بالاسم الذى قلته لى يومًا ما: أبو عامر المنصور.

المنصور : المنصور بالله منذ الآن فى كل الصلوات، وفى كل المآذن، سيذكرون اسمى إثر اسم ولدك، وفى تشريفات مجالسى سيكون اسمى مثل اسمه، وسوف يقبل الأشراف يدى ويدعوننى مولانا.

صبح : (فى صوت خفيض) السيد ...

المنصور : الخليفة الشاب منذ الآن فصاعدًا سيقتصر على أعمال الورع: لن يخرج من القصر (جلبة معركة) على الآن أن انشغل بالقونت فى قشتالة، وبملك بنبلونه اللذين انضما إلى غالب ضدى (تأخذ قطع الشطرنج البيضاء فى السقوط). سيمانكاس، روطة، ليون، استرجه، ناخرا، بنبلونه، برشلونه، قويمبرا، سان استيبان دى غرماج، أوسما... (من جديد فى القصر الملكى) سأتزوج ببنت ملك بنبلونه ، شانجه غرسى الثانى.

صبح : لماذا ؟ أليس لديك ما يكفى من الذرية، ومن النساء؟

المنصور : لا يسرى أبدًا دم ملكى فى عروق الأبناء بما فيه الكفاية (تشتد جلبة المعركة).

(خارج المسجد)

المنصـــور : آمر بتوسعة المسجد كى يتسع لكل المصلين، فإن سكان قرطبة قد زادوا، وأطردت كذلك زيادة المعتنقين للإسلام، وسوف يساعدنا النصارى طوعًا أو كرهًا فى تحمل التكاليف.

(القصر الملكى)

المنصـــور : قد خلعت لقب وزير على ولدى عبد الرحمن.

صـــبـح : إنه فى عامه الثامن فحسب.

المنصـــور : حين كان ولدك فى الحادية عشرة كان خليفة.

صـــبـح : وزير يلقبه الشعب بشنجول.

المنصـــور : جده هو شانجه، ملك نابارا.

صـــبـح : لكن أب ولدى كان خليفة، الأب والابن (ضجة معركة)

المنصـــور : سأبنى بتيريسا بنت برمود الثانى ملك ليون.

صـــبـح : لماذا ؟

المنصـــور : لأننى محتاج أن يدفع النصارى الجزية لى (تهوى أخريات قطع الشطرنج البيضاء).

صـــبـح : كفى . أشرع الآن فى استرجاع نظرى وذاكرتى، سأتحدث مع ولدى.

المنصـــور : سأتحدث معه أولاً، (يلقى بملكة الشطرنج السوداء فى الفضاء) لا تخرج السيدة من حجراتها دون إذن منى (يتوجه إليها) فى ذرعى أن أقتل ولدك - لن يخسر شيئًا - لكن، لماذا ؟ سأنتظر موته،

وســيكون أولادى اذنًا هـم الخلفــاء (يلقى بـالملك الأسود).

صـــــبح : ألم نكن كلنا آلات فى يدك يا منصور؟

المنصـــور : كنت حبيبة، وأنت الآن شريكة فى جريمة يستغنى عنها.

صـــــبح : ألا تخشى أن تكون آلة فى يد أخرى أقوى منك؟

المنصـــور : هذا يقـرره النصــارى : يدعــوننى سـيف الله، معتقدين أننى المهدى الذى يجىء قبل نزول عيسى ـ جاء يجاهدهم فى الألف الأولى التى يزول العالم بزوالها، أن لديهم تقويمًا آخر غير تقويمنا.

صـــــبح : احترس أن تنتهى أنت.

المنصـــور : على كل حال لقب السيد، الملك الكريم، سيدعوننى «صاحب الجلالة»، وأكون «الملك العظيم».

صـــــبح : ستكون يا منصور إلى الأبد نموذجًا للقساوة.

المنصـــور : ليس الحكم أن تغـمض العـيـون، وتسـد منافـذ الرحمة، الحكم ـ فى بساطة ـ لابد أن يمارس، وأن تذلل له العوائق التى تجابهه. الحكم قدر صعب.

صـــــبح : منافق !!

المنصـــور : ليس صحيحًا، محبرتى، وقلمى: كانا ما لدى وهو مـا بقى فـوق المائدة الآن. (فى الواقع، هوت كل قطع الشطرنج، يضع المنصـور فى وسط المائدة محبرته القديمة. ضجة حرب) قشتالة، نابارا،

جليقيه، حتى شانت يلقب دى كومبو ستيلا لا تقهر حتى مجج النصارى، المأسورين عليهم أن يحملوا أجراس كنائسهم، وكل أبواب مدينتهم إلى. أننى فى حاجة إلى قناديل أضعها فى الجزء الذى أضفته للمسجد، أحتاج إلى خشب جاف لأغطى السقوف (تهب ريح عبر بهو البرتقال، يدحرج قطع الشطرنج، ترتجف عبر شوارع الدويلة الخالية فى قلعة النسور، الحصن) لا أحد، لا أحد... بسبب شراهة النسور منذ القدم امتدت تلك البطحاء، من أجل نهم النسر ومن أجل النملة. آه . أيها الوادى الأخضر الذى خُلق للهزائم (ميدان أسلحة، ناظرا إلى أعلى من فوق برج المجد) ما أشد علو السماء، وما أضألها الآن !!

(يهذى، يدعونه يسقط فوق النعش) احملونى إلى مدينة سالم . (يظل يتمتم حول تغير المناظر)، كفنونى فى ثوب قد غزلته بناتى من كتان اشتريته من مالى الحلال: الذى بعت به أرضًا كان تركها لى آبائى، وغطوا جسدى بالغبار الذى جمعته من فوق دروعى فى المعركة خلال خمس وعشرين سنة، كى يشفع التراب للتراب أمام الله. عبد الملك يا ولدى أنت تخلفنى، فلا تثق بمن يخاف، واخش من يخشى، وعاجله بالعقوبة، وخرج ذكورهم

باستخدامك، وألحف إناثهم جناحك ما استطعت، ولا تخرج من قرطبة الجميلة، لكن حين يعتاص أمر فحله بنفسك، وإن خفت الضعف فانتبذ بخاصتك وغلمانك إلى بعض المعاقل التى حصنتها لك، واختبر غدك إن أنكرت يومك، وليحفظنا الله.
(الريح التى ما تزال تهب تقلب المحبرة فوق رقعة الشطرنج يلوث المداد مربعات مائدة الشطرنج الخالية).

# (٤)

# قصر أشبيلية

بـــــــــــــدرو: بعـد قليل تبـدأ الأزهار تفـوح، بيـد أنى سـأكـون
تحت الثـرى. بعـد قليل سـتـزهر الـورود... ربما
تكون هى الورود ذاتهـا التى رأتنا نصل إلى هنا
منذ خمس عشرة سنة، عندما لم يكد يتم أحد
منا ـ نحن الاثنين ـ عشرين ربيعًا»... لعلها الورود
ذاتهـا التى رافقتك إلى حيث أنت الآن: إلى هذا
المكان الذى سكت فيه عن الكلام ثمانى حجج..
سيزدهر البستان عما قليل، لكن ليس لأجلى،
لأننى سأذهب باحثًا عنك، تاركًا الزهور والورود
إلى الضـفـة الأخـرى من الربيع... فى ليـون
اكتشفت عينيك الواسعتين. قبلتهما لأول مرة فى
ساهاجون، وفى قرطبة أطبقتهما قائلة لى..

مـــــــــــــاريـا: إنها بنية يابدرو، ماذا سيكون مصيرها؟

شـــــــــــــاب: ستكون ملكة على عرش عظيم مثلك ياماريا.

مـــــــــاريـا: فليجعلها الله على ضرب آخر .. لأننى أمام الملأ لست سوى حظية الملك.

شـــــــــاب: سيحين الأوان الذى تتصبين فيه ملكة الملك.

بـــــــــدرو: جعلت الحرب كل شىء ضد حبنا، أمى، والنبلاء، والمشير البوركيركى وقلق أخوتى، النغلاء، والجوار مع فرنسا... لقد زوجونى بالقوة ببلانكادى بوربون.. كانت ابنتنا بياتريس لا تكاد تتم ثلاثة أشهر، وكنت أحث الخطى نحو بلد الوليد والغبار . أو لم يكن الغبار . يحرق فى عينى. أما أنت فقد بقيت فى مونتلبان مع الصغيرة بين ذراعيك.

مـــــــــاريـا: الآن عرفت حظ حظية الملك دائمًا.

شـــــــــاب: (فى ارتجافة) سيحين الأوان الذى تتصبين فيه زوجتى.

بـــــــــدرو: كان شيئًا كالمزاح.. زوجونى ببلانكادى بوربون. لم أقل أنا ولا أحد غيرى إننى كنت متزوجًا .. كنت جبانًا . كنت جبانًا معك إلى حد كبير يا ماريا باديا . ما اشتكيت أبدًا، لقد عرفت كيف تنتزعين البسمة من خلال الأسى.. جعلت الحرب كل شىء ضد حبنا، أننى كنت الأول يا ماريا... لن يتأخر الربيع كثيرًا . لكن لن يعنينى ذلك. فاليوم أودع إلى الأبد هاته الحجرات، مخدعنا، العارى مثل الأثاث مثل فؤادى... أودع هاته الغرف حيث

حاولنا بالقوة أن نكون سعداء. يافعين تمامًا، ووحيدين تمامًا.. لقد هويتك أكثر من أى شيء آخر فى هذا العالم. مثلما هويت قشتالة.. وبعد الحب، ما يبغيه المحب هو أن يشهر حبه، لكن لم يكن ممكنًا. أن حبك وسره الذى اكتنفه كانا يعذبانى مثل قشتالة.... زوجونى بالقوة ببلانكادى بوربون بينما كنت أقول: نعم. فى عقد القران، كنت أفكر فى عينيك. الفاجرون الكبار انريكى تراستمارا، وفديريك رئيس الرهبانية الحربية فى شانت ياقب كانوا يبتسمون، هذا المساء قد وقفت على السبب...

الشاعر الجوال: يقول الناس دون أن يعرفوا الحقيقة
إن الملكة حبلى
من الرئيس الحربى لرهبانية شانت ياقب
دون فديريك دى قشتالة
وآخرون يقولون إنها نفساء

بلانكا: آه! من حظ الملكة السيئ
أسوأ من أخريات
زوجونى بالملك
لأجل كارثتى
فى ليلة زفافى
لم أر ليلة تماثلها.

بـــــــــــدرو: أى حقد يكنه أولئك الفاجرون! لقد سلب منى انريكى عندما أتم خمس عشرة سنة خطيبتى الأولى. خوان مانويل فى هذا القصر وفدريك حينما كانت يصحب من فرنسا الأميرة بلانكا هتك عرضها... أننى أشكره على نحو ما: ففى اليوم الثانى من الزواج كنت بين ذراعى.. لكن سلامنا لم يتم عامًا واحدًا. هنا يودع أحدنا الآخر.

مـــــــــاريا: إن قشتالة تصيبنى بالسأم. لست أريد أن أظل بينك وبين قشتالة. فأمام أعين الناس بلانكا هى زوجتك.

شـــــــــاب: لكنك زوجتى أمام الله.

مـــــــــاريا: أن الله قد حول عينه عنى.. فلننفصل يابدرو، سأدع القصر: هذا الهواء، ووخامته.
هذا العبق الدائم الذى يفوح برائحة الزهر، وهذا الظمأ الخالد..

شـــــــــاب: إننى أحبك يا ماريا وأنت تحبيننى

مـــــــــاريا: الملوك لديهم مشاغل جمة. قشتالة حانقة بسببى. أنك تخيب أملها، فارجع إليها.

شـــــــــاب: وأنت؟

مـــــــــاريا: سأختفى. فى دير أستودييو ثمة مكان شاغر ومن هناك سأشاهد الأرض جرداء وهو منظر كدت

أنساه.. لحب كبير مثل حبنا تكفى سنتان..
(يرتجف صوتها) لقد أراد الله أن تعرف قشتالة
الدم الذى تجشمته.. لا تقترب منى... وداعًا ..
لا. لا تقترب شفقة وإلا فلا أقوى على المضى.
وداعًا، هالن يعرف أحد أننى كنت زوجتك
الحقيقية.

بــــــــــــــدرو: قبلت مرة أخرى تضحيتك، لأن القسم الفاسد
من قشتالة يحتم ذلك. لكن إلى بلانكادى يوربون
لن أستطيع العودة، البوركيركى واعداؤه الفجار
تحالفوا ضدى . لقد تجمعا حول بلانكا، كان
اسمها مجرد تعلة، ما كانوا يبغونه هو السلطة
التى كنت منحتها إلى أقربائك، مريدا بذلك
كشف لعبتهم القذرة: أعلن أساقفة شلمنقة وأبيله
أن زواجى ببلانكا باطل، فاخترت زوجًا أخرى
هى خوانا دى كاسترو ابنة خالتى كانوا يلقبونها
«الجميلة» كانت أخت أنيس دى كاسترو التى
عذبت كثيرًا عمى دى بدور برتغال: أنيس دى
كاسترو التى شابهت حياتها كثيرًا حياتك أنت..
فى ذلك الشهر مايو، ولم يكن مايو بالنسبة لى
تزوجت فى كويار. وعند عتبة باب الكنيسة
تركت قلبى كأنه شىء زائد.. وبعد بضع ساعات،
ووشيكا أنبأنى جوتيرث دى ثيبايوا أنه مسار

تاريخى فى طريقه إلى تغيير. ففى ريباد يكابا تآمر الفاجرون، وحاجبى القديم، وكثيرون من النبلاء، والمتظاهرون بصداقتى، وأخوة زوجتى الجديدة أنفسهم على اجتياح قشتالة وعلى خلعى، وأولئك الذين أسديت إليهم من الفضل لكى تهدأ المملكة قد باعونى.. أنهم ناسك المأسورون. وأنت مهجورة ووحيدة، ·رفضك كان دون جدوى. قبض الريح أساك وندامتى.. دون قناع يتواجه الطموح والحب! لقد كنت الملك، وكنت أهواك.. تركت خوانا دى كاسترو متزوجة أو لأنها زوجة، وعلى حافر الخيل مسرعًا ذهبت أبحث عنك.

شـــــــــــاب: ما يجمعه الرب لن يفرقه الإنسان. أنا وأنت إلى الأبد والآن سوف تدرى قشتالة ـ بالقوة ـ من الملك.

بـــــــــــدرو: اليوم أنا أودع القصر هذا، لا أميز مسافاته بدونك. عما قليل سيفوح العبق فى فراغ: لا أنت ولا أنا سوف نحس بعبقه السكران الخفى.. أننى أودع اليوم المكان الذى كنت أءوب إليه بعد المعارك. ذلك المكان الذى كنت تعزيننى فيه عن عداوات قشتالة، ذاك المكان الذى كنت تنسيننى فيه أسماء هاتيك النساء العابرات وببسماتك كنت تقصينهن عنى، يا صاحبتى ماريا دى باديا،

واليوم ملولاً مكروبًا، أنثر ذكرياتى، لأنها كلها تكرب حاشا ما تشاركيننى منها...
ياله من نفق فظ، ياله من نفق طويل. أنظر فيما حولى فلا أرى سوى خيانات، حتى أمى خانتنى... بكسرة من الخبز تحملها أصبعاى كنت أستطيع أن أشبع كل رجالى الأوفياء فى قشتالة... آه. حزين، حزين، فظيع ومحزن، أن تكون ملكًا لأنك ولدت ملكًا، وأن تقيم العدالة دون أن تدرى أين هى، وأن تعتبر أعداء المملكة أعداء لك.. وأن تكابد دائمًا الهواجس فى أن تدع كل شىء، وأن تستسلم، وأن تترك كل شىء، وأن يقصى عن الرأس، العرش الخانق، أن تخلد إلى الراحة فى أحضان من تحب.. كم هو قاس ومعتم ذلك النفق، مصير الكبار، لأن عليهم أن يكونوا كبارًا فوق كل شىء، لأن الصغار يريفون منهم تلك العظمة.. خلال أعوام كثيرة كل شىء كان مرجل غدر.. حرب فى قشتالة، حرب مع أراجون. قيد اسمى خارجا عن الكنيسة، استدعى الأجانب لحل نزاعات عائلية. آه حزين، حزين..... تراتامارا، العاهر يتطلع إلى عرش إسلافى، يهدهد راشيا النبلاء الذين يرون فى سوطهم. لأن سلطانى كان عليه أن ينتزعنى من عينيك

يا ماريا، وأن أحكم... أمامى، ليس إلا مواطنون دون مدلول للطبقة ولا للغنى: النبلاء والشعب: الكل سواء دون مدلول دينى، مسلمون، يهود، نصارى.. كلهم يصنعون المملكة.. محو الامتيازات المساواة، المساواة، إزاحة القناع عما يختفى وراء الشفقةالزائفة، والحماسة الكاذبة... حزين حزين.. أنى أرغت سدى أن أصنع بالرحمة ما يجب صنعه بالحديد.

وأن أصل إلى النتيجة هى أننى على - فى قشتالة - أن أراوح بين الاستبداد والفوضى. خداعات، تزييفات شبكة من الشكوك حول النفس، لقد علمونى الحقد آه حزين حزين. عما قليل ستبث أشجار البرتقال عبيرها، بيد أنى لن أراه، فى النهاية سأغمض عينى عن هذا العالم الذى ما فهمته جيدًا..

أرجوحة من الخيانات وضعت العاهر فديريك إلى جانبى - ظاهريًا فقط - ضد أخيه انريكى الذى تحالفه.أراجون كنا فى هدنة، نتكلف سعادة ما شعرت بها، استولى فديريك على خوميا باسمى، ممزقًا بذلك الهدنة... وكنت أنا قد شتتت جيوشى.. استدعيته إلى القصر.. كان ينبغى الانتهاء... وفى هاته القاعة وثقت فى حكم

ابن عمى أمير أراجون.. وأنت يا ماريا، فى هذه القاعة رأيت عينيك الجميلتين مغرورقتين بالدموع. كنت أعبد عينيك.. والأمير بعد عشر حجج تلقى ما يستحقه، عرض أن يقتل بيديه فديريك.. كأنه لا يوجد جنود. حزين جد حزين... كنت ألعب هاته الليلة «الدامة» وصل فديريك فى صحبة أخيك رئيس رهبانية قلعة رباح المسلحة، كان الاثنان ينكتان. وأنا أمرت صاحب الصولجان.

شـاب: لكن يا لوبث اقبض على رئيس الرهبانية.

لـوبـث: أيهما ياسيدى، صاحب شانت ياقب أم صاحب قلعة رباح؟

شـاب: صاحب شانت ياقب، الأخ رئيس الرهبانية، من الحتم أن.

بـدرو: كان فديريك ينظر إلىَّ، فأطلق منى، ودافع عن نفسه، لكن ذباب سيفه اشتبك فى دثار رهبانيته الفضفاض..

شـاب: أجهزوا وأنجزوا.

بـدرو: كان يتفادى الطعنات، ويتجنب الضربات، إلى أن طرحه أرضا أحد المسددين... كان يسمع نشيجك. بينما كانت فراشة ليلية تلوب بين شظايا الخشب، وكانت الورود فاغمة. كان

الجوحارا ... وكان فديريك يتململ... رأيت بركة دمه، من دمى تنمو فوق المرمر.. حزين حزين دون أن أودعك لئلا أنظر فى عينيك، ركبت فرسى، وهجرت أشبيلية.. كانت أشجار البرتقال آنئذ تفوح. وسوف تفوح أيضًا.. لكنى سأذهب للبحث عنك وراء عرف البرتقال والزهور فى ضفة الربيع الأخرى لماذا صنعت هذا ياماريا دى باديا. كنت ذات خمس وعشرين سنة فقط، كنت رقيقة وعذبة، كانت عيناك تضحكان قبل أن يضحك ثغرك، كانتا تهدهدان رأسى مثل طفل صغير، وقد نسيت الدم الذى كان ينزف من الجرح، الأحلام الرديئة، الكوابيس التى كانت تغمر ليالى مخاوفى.. أنك كنت شطر روحى، الشطر الأحب من روحى، لماذا فعلت هذا؟ قولى لى. ذات يوم من شهر يونيو استلقيت فى فراشك، شاحبة، مرتجفة....

ماريا: فليفتحوا الباب فالجو حار.

بدرو: كان الباب مفتوحًا.

ماريا: لاشىء يرى، لقد اكفهر الجو بسرعة.

بدرو: كانت السماء صافية ، وشمس الظهيرة تتسلل، وعبق الورود الفاغم.

ماريا: لا شى يرى..

بـــــــــــــدرو: كنت أنظر إلـى عينيك، عينيك الجميلتين، كانتا طائرين أجنحتهما مفزعة.

شـــــــــــاب: ماريا.

بـــــــــــــدرو: لم تسمعينى.

مــــــــــاريــا: دائمًا كنت أحبك، وإلى الأبد سأحبك.

شــــــــــاب: لا. من الضرورى أن يعرف الجميع أنك زوجتى. انتظرى، لا. من الحتم أن تعرف قشتالة من هى ملكتها.. اسمعوا اسمعوا. ماريا دى باديا هى ملكتكم، وابنها ألفونسو هو ولى العهد، وبناتهاهن أميرات قشتالة.. (فى نشيج) ماريا هى ملكتكم.....

بـــــــــــــدرو: لم تسمعنى أبدًا ماريا دى باديا، كنت ميتة، لماذا صنعت هذا، لماذا؟ لقد جمعت مجالس عامة لأعلن فى جلال أمام الدول الثلاث أن زوجتى الوحيدة كنت أنت، وناديت شهود العقد الشرعى أن يذكروا أننى اقترنت بك.

وبايع مجلس البلاط ابنك - ولم يكن أتم عامين - وليًا شرعيًا لعرش قشتالة... لم تكونى أمام أحد حظية الملك. كان اسمك مكتوبًا فى القائمة المذهبة للملكات، وابنتك بياتريس ستكون أيضًا ملكة على عرش عظيم، هل تذكرين؟ من البرتغال: أمرت أن يحضروا جسدك فى موكب

وأن يكون القداس مما يكون للعاهلات، دفنت فى مقبرة الملوك فى الكنيسة الكبرى، وأدى كاهن طليطلة طقوس جنازتك، وقد جثا النبلاء أمامك... متأخرًا، متأخرًا، جد متأخر. آه، متأخرًا جدًا.. منذ وفاتك، وكل شى ردىء: كأنك لا تريدين قبول التكريم... حرب مع أراجون. حرب مع الفاجر، دم، مرة أخرى دم، موت ولدنا، لماذا لم تقبلى أن تدعيه فى قشتالة... والبرتغال، عادت بياتريس عازبة حين رأت كوارث جمة. أننى وحيد يا ماريا، لقد تركونى وحيدًا تمامًا، احتل انريكى تراتا مارا مملكتى.

لوجرونيو، سالفاتيرا، بيتوريا، واضح أننى لا أستطيع الدفاع عنها، ويطلبون منى أن أسلم نابارا، لقد أعطيت أوامرى -فى حالة الاضطرار إلى الاستسلام - أن يسلموها إلى الفاجر: قشتالة، ليكن من يكون ملكها - لا يجب أن تتشعث...

اليوم أودع إلى الأبد هاته الغرف... ولتبق بناتنا محصنات فى قرمونه، وأبنائى الذين رغبت فيهم، لأرى إذا ما كانت الحياة متمسكة بى بعد أن رحلت أنت، سأرحل إلى طليطلة إلى معركتى الأخيرة، أدرى أننى سأموت هذا لا يعنينى، أدرى

أن أخى انريكى سيقتلنى، وسيقبض على عنان قشتالة. حسنًا، حسنًا، حسنًا، أننى مجهد: ورجل مجهد لن يكون على الإطلاق ملكًا صالحًا... أفكر فى أن السيف يشحذ لأصرع هنا.

مرحبًا، وأهلاً، دم بدم، وراحة فيما بعد، هذا كل ما أبغيه ... أطأ هاته الرخامات التى شاهدتنى معك، أبارك هاته البلاطات، وتلك الفنون. أبارك شمس فبراير.. أدع حبى هنا، حيث عما قليل - ودون خلاف - تشرع أشجار البرتغال تفغم.. وداعًا، أيها القصر حيث استقرت فيه حياتى - فى عذوبة -، أيتها الأبعاد التى سمعتنى أضحك، أيتها المياه، الفوارة، الرقيقة، أيتها الأشجار العوالى التى ستظل تورق زمنًا طويلاً. بعد قرون حين يجىء أناس آخرون يزورون هذا القصر، يعرفون قصة حبى الحزينة.... وداعًا، أيتها الجدران التى ضمتنى منذ أن كنت طفلاً مثل طائر يتيم....

إلى اللقاء الوشيك يا ماريا دى باديا، يا رفيقتى، إلى اللقاء الوشيك جدًا، لأننى سأبحث عنك - فى عنف - بأسنانى وأظافرى، بشهوات رجل حديث الزواج، فى أى مكان تكونين فيه، تحت زهور البرتقال، وتحت الورود، فى الضفة الأخرى من الربيع....

# (٥)

# الحمــراء

مولاى الحسن : أمض. أيها المسيحى، وقل لمن أرسلك أن ملوك غرناطة الذين كانوا يدفعون الجزية قد ماتوا، ومن الآن فصاعدًا لم يعودوا يصنعون الذهب هنا، بل الحديد والسيوف من أجل الأعداء.

فرناندو : حسن: بما أنهم قد أرادوا هذا، فإننى سأنزع تلك الرمانة حبة حبة.

أبو عبدالله : منذ عشر سنوات فقط، تحدى مولاى الحسن (أبى) بهذه الصورة وبهذه الصورة أيضًا أجاب فرنادو (الملك الكاثوليكى) على هذا التحدى، هكذا بكلمات قلائل يتحدد مصير.. عشر سنوات قصار تكفى ضد ثمانمائة سنة.

مريمة : فى ثمانية قرون. لم تسترح كل من قشتالة وأراجون.

أبو عبدالله : ونحن مع ذلك نترك أنفسنا يحملنا العبق شيئًا فشيئا.

مـــــريمـــــة: لقد ولدنا هنا، هذه كانت أرضنا، هنا كنا نستمع إلى الأغنية الأخيرة.

أبو عـبـــدالله : نغرس الفن والجمال مثل الياسمين والآس، ولدى شجر الرمان نطالع كتب العلم، ونقبل ثغر المحبوبة: ثغرك يا مريمة، مثل زهر الرمان لم نفكر فى أنه من خارج البستان يهيئ القدر لنا المدية واللحظة.. فقدنا حياتنا فى سبيل الرقة.

مـــــــريمـة : بسرعة فائقة بادلنا بخواذتنا عمائم مطرزة، وبسرعة فائقة نسينا أن السلام لا تحققه إرادة واحدة..

الشاعر الجوال :

بينما كان يتجول الملك العربى
فى مدينة غرناطة
من باب البيرة
إلى باب الرملة
وصلته رسائل
تخبره بسقوط الحامة
رمى بالرسائل فى النار
وقتل الرسول.

أبو عـبـــدالله آه أيتها الحامة، حامتى أنا، كانت هذه هى الحبة الأولى من الرمانة (غرناطة) من هنا بدأ الألم... ومنذ ذلك الحين تخلت أمى عائشة عن عرشها وتاجها لثريا المسيحية الأسيرة إيزابل دى

سوليس. وقررت الانتقام.. كنت أنا سلاحها،
تصديت لأبى، سانده بنو السراج، تدفق دم بنى
السراج أكثر من ارتفاع هذه النافورة.. كنت ابن
عشرين سنة، فى المساء كنت أسمع ارتطام
الصرخات فى أحياء الصناعة الشعبية مثل
الطيور العمياء.. وانبترت زهرة المحاربين
النصريين هذا المساء فى هذه القاعة...

الشاعر الجوال : (متهمًا)

قتلت بنى السراج
كانوا زهرة غرناطة
وجمعت المنشقين
من قرطبة
لذا تستحق أيها الملك
أن تعانى همًا عظيمًا
أن تفقد نفسك وعرشك
وأن تسقط غرناطة...

أبو عبدالله : لقد حبسنى أبى، وحبس السلطانة عائشة،
وببراقعها وبراقع وصيفاتها أجبرنى أن أتدلى من
البرج، وفى البيازين بايعنى من بقى من بنى
السراج ملكًا. حاربت أبى، نزف الدم شآبيب فى
الشوارع. كل شىء كان مذبحة كان فناء، كان
مهلكة، الجار ضد جاره، والقريب ضد قريبه...

الشاعر الجوال :

بنو الصغير، وبنو الجمل
وبنو الزرقى، وبنو عوض الله
وبنو غز، وبنو بورتليس
وبنو السراج، وبنو معزو
والفخارون، وبنو شيس
والفردقى، والفرار
كلهم يبكرون ليغرقوا الفجر فى الدم.

أبو عبدالله : أبى مولاى الحسن، وعمى الزغل لاذا بمالقه....

مريمة : .... إننى أعبدك يا غرناطة، وأنت يا أبا عبدالله...

أبو عبدالله : أنت يا مريمة، وغرناطة الفضليان لدى، لذا وددت أن أخالط فرحة الحمراء: حاولت أن أجعل من اسمى (أبوعبدالله الصغير) اسمًا كبيرًا، حاربت النصارى...

الشاعر الجوال :

من باب البيرة هذا
زحف الجيش اللهام
كم فيه من وجوه المسلمين
كم فيه من كمت الخيول
كم فيه من رماح مشرعة
كم فيه من بيض الصفائح
كم فيه من بزة العسكر الخضراء

كم فيه من جباب قرمزية
كم فيه من ريش وأناقة
كم فيه من فحول الخيول
كم فيه من حو الأحذية
كم فيه من أعصبة توشحه
كم فيه من مهاميز ذهبية
كم فيه من ركاب فضى
كان الجميع صناديد
عركوا رحى المعارك
وفى قلب هذه الكتيبة الجرارة
يمضى ملك غرناطة الصغير
ترمقه المسلمات من بروج الحمراء
يلبس عمامة مطرزة
فيها سطر يقول:
«طريقى الأثير هو الحب»
يربط القلنسوة والجبهة
شال أخضر
وبين ريشتين ذهبيتين
ريشة بيضاء مثبتة
فيها سطر يقول:
«نفس واحدة فى جسدين»،
شال وعباءة

لونهما بنفسجى

بتطريز يقول:

«أنت شمس آمالى».

ناظرًا إلى سيدة مسلمة

فى أبراج الحمراء

هى أمه الملكة المسلمة

تحدثه هكذا:

«ليحفظك الله يا ولدى

وليحرسك النبى محمد».

مــــــــريمة: لم يفـدك شـيـئًا، كنت لا تـزال تنظر إلـىَّ من باب البـيـرة، وعنـد الخـروج مـرق ثعلب من أمـامك، أطرحت النذير الشـؤم يا أبا عـبـدالله، وغـدوت أسيرًا فى لوشه...

الشاعـر الجـوال : (رسول)

لقد خسر الملك الصغير

وانفض من حوله من كانوا معه

لم يهرب أحد:

فهم: أسير، وقتيل، وجريح

كانوا جموعًا غفيرة

وأنا وحدى الذى تزودت

للإتيان بمحزنة جديدة

من البلية العظمى التى حدثت.

مريمة : بقيت غرناطة بلانور، بلانور، والملكة عائشة، بلانور، وأنا...

الشاعر الجوال :

يبكون ملكهم الصالح
الحبيب العزيز
يتظلمون إلى النبى محمد
الذى تخلى عنه
كل جواهره ترخص
فى سبيل افتدائه:
حتى حلى نسائه وخلاخيلهن
وأمشاطهن من الذهب الإبريز

الراوى : (فى حياد يقاطع الشاعر) هذه هى شروط الفداء: يعلن أن أبا عبدالله معاهد وفى للملكين الكاثوليكيين، يدفع جزية سنوية قدرها اثنا عشر ألفاً من الدوبلة الذهبية، ويفك أسر أربعمائة أسير مسيحى، ويستجيب بصورة دائمة حين يطلب منه أن تمر فى أراضيه قوات تذهب لقتال أبيه مولاى الحسن أو عمه الزغل، وأن يحضر إلى بلاط الملكين الكاثوليكيين حين يستدعى.. وأن يسلم ابنه وأبناء الأمراء المسلمين رهينة لتوكيد الميثاق.

أبو عبدالله : قدر حزين أن تكون مأمورًا،، لقد غدوت الآن
سلاح النصارى ضد عمى الزغل ـ كما كنت قبل
ذلك سلاح أمى ضد مولاى الحسن...

مريمة : أنا وأمك استقبلناك فى البيازين... واستغل أبوك
هزيمتك، فاستقر فى الحمراء.. بينما كانت
الجلبة والطبول تحمس بنى السراج، وكنت أفكر
فى ولدنا وهو فى قصر قرطبة بعيد جدا، يبسط
ذراعيه فى الظلام باحثًا عن أمه... دون جدوى.

أبو عبدالله : وأنا لكى أحقن دم شعبى النازف قبلت المشاركة،
ونأيت عن المرية، وللمرة الأولى انشطرت مملكة
غرناطة شطرين، واقتلع الشجر...

الشاعر الجوال :

ألورا، أيتها القريبة
الواقعة بجانب النهر
لقد اقترب منك السابق
فى أحد صباحات الأحد
ترين مسلمين ومسلمات
هاربين إلى الحصون
المسلمات يحملن ثيابًا
والمسلمون يحملون دقيقًا وقمحًا
والموريسكيون الصغار يحملون
الزبيب والتين.

أبو عـبـدالله : ألورا . شتتيل، قوين، قرطمه، رنده.. تنازل مولاى الحسن عن العرش يائسًا من عمى الزغل.

مـــريمـة : كان يعيش الزغل فى الحمراء، ونحن مرة أخرى فى البيازين...

أبو عـبـدالله : والآن. غرناطة، التى كانت مشطورة شطرين.

مـــريمـة : كل مساء، ناظرا إياه، كنت تحلم أن تعود إلى هذا القصر.

الشاعر الجوال :

رحل الملك من قرطبة
وكذلك ملكة قشتالة
فى عام ستة وثمانين
وأربعمائة وألف
ومعه زهرة الممالك
وكوكبة عظيمة من الفرسان
فى طريقهم إلى لوشة
يريدون الاقتراب منها..

مـــريمـة : ولدت فى لوشة.. اليطار، والقائد، وأبى تعود أن يقول لى ضاحكًا حينما كان يهز الرياحين: «لن تخرجى من هنا إلا لكى يناديك بهو الأسود: يا سلطانتى»...

أبو عـبـدالله : هذا ما حدث.

مـــريمـة : بيد أنى لم أستطع أبدا العودة إلى لوشة.. ولا إلى ألورا، ولا إلى موقلين...

أبو عبدالله : ولا إلى جبل الثلج، ولا إلى قلهمره...

مريمة : ولا إلى سالارا، ولا إلى بلش...

أبو عبدالله : حينما ذاع فى بلش نبأ هزيمة الزغل، قادنى أهل غرناطة منتصرًا من البيازين إلى الحمراء، وعادت غرناطة لى مرة أخرى.

مريمة : بيد أنك لم تستطع العودة أبدًا إلى مالقة يا أبا عبدالله، العودة أبدًا إلى مالقة، كل يوم يتضاءل عالمنا..

الشاعر الجوال :

لقد صارت مالقة ضيقة جدًا
فى تصدع وانهيار
منهارة فى كل جوانبها
دون أى دفاع
«يرجوك حامد الصغير
مع هذه الزمرة
أن تسلمى هذه المدينة
فليس لديها أى دفاع
تأملى كيف قتل المسيحى
هذا العدد من المحاربين
ألا ترين أن الباقين
يسلبهم الجوع والحياة
لقد خارت قوى غرناطة
ولم يعد ناسها كعادتهم

فروسية وكبرياء

لأن ملكهم قد قتل»

أبو عبدالله : أجل، فى القريب العاجل، مهاد محدود من الأرض سيكفى...

الراوى : غزيت مالقة، انشطرت المملكة النصرية إلى ثلاث ممالك: يسطر ملوك قشتالة على جزئها الغربى من ألورا وموقلين حتى بلش، ويسيطر الزغل على المرية وبسطه ووادى آشى والبشارات حتى المنقر: وأبو عبدالله الملك الصغير يزهو بمدينة غرناطة وغوطتها وجبلها، ظلال ملك.

أبو عبدالله : لقد استخدمنى الملوك الكاثوليك لإضعاف العدو المشترك، وفى وسعهم الآن أن يشرعوا فى الحصاد.

الشاعر الجوال :

على بسطه يشرف فرناندو

فى يوم الاثنين بعد الغداء

كان يتملى الحوانيت الفنية

التى فى مملكته.

يتملى البساتين الفسيحة

يتملى الأرباض

يتملى المحجة العظمى

فى المدينة

يتملى الأبراج الكثيرة

التى تستعصى على الحصر

على بسطه يشرف فرناندو

وسيظل فى داخلها.

أبو عبدالله : (فى بطء) بورشينا، المرية، وادى آشى، سالوبرنينا، المنقر...

فرناندو : ها نحن ننتزع حبات هذه الرمانة حبة حبة (وقفة)..

أبو عبدالله : ها نحن وحيدان، يا مريمة، لقد انتهى والدى، وانتهى الزغل، وليس لمدينة غرناطة سوى ملك واحد.

مريمة : حقيقة نحن وحيدان يا أبا عبدالله، نحن وحيدان، لا أحد، لا شىء.

الشاعر الجوال : (رسول مقاطعًا):

شىء جديد أجيئتك به يا سيدى

سفارة سيئة جدًا

من نهر شنيل البارد

يقدم أناس كثيرون مسلحون:

راياتهم منشورة

يسيرون على إيقاع الحرب:

وثمة راية ذهبية

بها صليب فضى

ويقسمون جميعًا
على الصورة المرسومة
ألا يخرجوا من الغوطة
إلا إذا غنموا غرناطة

مـــــــــريمـة :

أنشودة النصارى
تسمع من الحمراء
وصهيل خيولهم
يؤرق السلطانات...

الشـاعـر الجـوال :

يا إلهى كم تبدو جميلة
فى غوطة غرناطة:
كل أسوار المبانى
كل القلاع المزخرفة
قبو دائرى
تحيط بك كلها وتستحم
لقد أنشأك الملك دون فرناندو
وعاونته الملكة إيزابل
وفرسان مسيحيون
قطعوا أشجار الغوطة
وفوق الجانب الأيسر
يضعون صلبانًا قرمزية.

إيـــــزابـــــل : لقد حـدثتنى يا كـولومـبـوس عن الهند الشـرقـيـة، عن ثيـانجـو، عن قطاى، حـدثتنى عن الفـراديس النـائيــة جـدًا .. اصغ إلـى: خـلال مـا يقـرب من ثمانمائة سنة تتحدر قشتالة تجاه الجنوب بوصة بوصـة مـبـهـورة بالشـمس، وفـتـنتـهـا، بخـضـرة الخصوبة، تضغط على أسنانها، تغمض عيونها، عانت مـا يقرب من ثمانمائة سنة فى طريقـها إلى هذا الفـردوس القـريب الذى سلبـوه منهـا، .. إنك تتـحدث عن عـوالم أخرى.. لا أدرى هل أنـا ملكة حـقًا، أم لست سوى ربة بيت تعـرف حـسـابـاتهـا بالعـد على الأصـابع، تنفق مـا تسـتطيع، وتراجع المواعـيـد، وتهيئ الراحـة لـرجـالها بعـد العمل...؟ اصغ إلىَّ ياكولومبوس: قشتالة متطلعة لا يروقها بيتها، تريده فقط للعودة إليه أحيانا لكى تستريح، ولذا فـهى فى حـاجة إلـى من يرعـاه لهـا، أننى أنا التى أرعى لقـشـتـالة بيـتـهـا... عبـر مـا يقـرب من ثمـانمائة سنة حلمنا «بإسـبـانيـا» .. لكى تـكون خـريطتـهـا التى تشبـه أهاب الثور كلهـا لنا، فـقط ينقـصنا ثـمرة صـغـيرة أحلى ثمـرة، ولعلهـا زهـرة فـحـسـب: أجـمل الـزهـرات، وهـا نحن نلمـسـهـا بأصـابعنا .. أنت تتحدث عن الهند الشـرقـيـة، عن معاهدات، عن مال، .. ليس لدى يا كولومبوس.

فى هذا الوقت. فـرحـتـى غـامـرة جـدًا أن أرى
غـرناطة أمـامى، سـأعطيك جـواهـرى لتشـرع فى
السفر، حتى جواهـر ليس عندى، إنها مخزونة فى
بلنسـيـة، رهينـة نظيـر ديون سـالفـة.. ليس لدى
شىء: سـوى تلك الفـرحـة أن أعـرف أن أسـلافـى
يهتـزون طربًا فى قبورهم، لأن الاسـترداد - طريق
الصليب الطويل - فى طريقه إلى التمام.. قشتالة
مـثل هـاتيك اللبـؤات العـجـائز التى تنام وبين
مـخـالبـهـا بذرة بخـور، تشـمـه، تتـسلى به عن
الإزعـاجـات، عن أيام مؤلمة.. انظر يا كولومبوس
كيف تلمع بذرة البخور هذه!

الشـاعـر الجـوال :

ما هذه الحصون الباذجة المتلألئة
يا سيدى، أنها الحمراء
والآخر المسجد
والأخريات الدشارات
العجيبة الصنع
والأخرى جنة العريف
البستان العديم المثال
والأخرى القباب الحمراء
حصون عظيمة.

فـــــــرنـانـدو : إذا رعيت فى الزواج منى يا غرناطة

فإننى أمنحك قرطبة وأشبيلية
صداقا، وحلوى.

إيـــــزابـــــل : لا تحدثوا امرأة جاءها المخاض عن شىء آخر:
لا تمزجوا رعايتها بشىء آخر، قشتالة تتمخض،
ستأتى أزمنة أخرى، حين يهدأ بيتها من جديد
يا كولومبوس حينئذٍ نتحدث عن تيبانجو، وقطاى،
اليوم قطاى قشتالة قريبة جدًا، هنا منشورة فى
الشمس، متكئة برأسها الجميل على وسادة من
جليد.. إيزابل ربة بيت قشتالة تطلب منك
الانتظار.

الشاعر الجوال :
أنشودة النصارى
تسمع من الحمراء
وصهيل خيولهم
يؤرق السلطانات

مـــــريمـة : إنهم يقتربون، ها هم يقتربون.. الألم يطرق بيده
الصخرية بوابة النبيذ.

أبو عبدالله : فى بوابة العدالة، يد الألم تتدلى إلى المفتاح،
وتفتح قصورى شيئًا فشيئًا.. ماذا صنعنا؟ «لا
غالب إلا الله، لا غالب إلا الله». هل كان كذبًا ما
حدثونا به؟ كنا نحن أيضًا نحلم: «بإسبانيا» خلال
ثمانية قرون كنا نهتف أيضًا باسم «إسبانيا» وكل

يوم صوتنا ينخفض .. نجمة النصريين يأخذ وجهها فى الأفول، شمس تشرع فى طمسك أيتها النجوم الشاردة التى تسطرين القدر الأسيف لمن ينهزم..

مريمة : إنهم يقتربون. ها هم يقتربون..

أبو عبدالله : أية ملكات أخريات تتكئ تماثيلها النصفية فى شرفة الواجهة؟ أية أقدام أخرى ذوات أحذية من طرز متعددة تطأ هاتيك القاعات؟ آية آذان هيئت فقط على طلقات البارود سوف تستمع إلى موسيقى الحب من نوافيرنا؟ لأجل من سوف ينمو النسرين والآس؟ الأقوياء ليسوا فى حاجة إلى كل هذه الرقائق.. سوف تدوسها سنابك خيولهم، وسوف ينمو العوسج...

مريمة : فوق قبة أبى الحسن سيضعون مئزر ملكة اسمها صعب، لن يكون اسمها عائشة، ولا ثريا...

أبو عبدالله : فوق الشعار الوحيد لبنى الأحمر «لا غالب إلا.. الله» يكتبون شعارهم هم، وينقشون الحرف الأول من اسم الملك والملكة الفاء والهمزة (فرناندو وإيزابل).. وفوق ألوان زليجنا سيرسمون نيرهم وكنانة سهامهم. الأقوياء ليسوا فى حاجة إلى جماليات كثيرة: حسبهم القوة.

مريمة : فى طاقات مباخزنا يصنعون محاريب قديسهم..

أبو عبدالله : وفى قصر العدالة يشيدون مصلاهم...

مريمة : لا غالب إلا الله.

أبو عبدالله : وفى أحواض الوضوء يضعون ماء التعميد.

مريمة : إنهم يقتربون، ها هم يقتربون.. وفى الحمامات الساخنة حيث تسمع موسيقى المعازف الخفية، وحيث تتكاسل الأجساد الرائعة الجمال، وحيث البخار يعبث عبث المئزر الشفيف، حيث تطل الشمس باسمة دون أن تدخل.. فى الحمامات الساخنة يخزنون البارود والقمح.

أبو عبدالله : حيث كنا سعداء، نغنى، سيكونون هم أقوياء فقط.

مريمة : حيث كنا أقوياء، ولطفاء، سيضعون هم حجارتهم.

أبو عبدالله : وعلى الكتب التى فهمنا منها تاريخ البشر يضعون هم النفط عليها.

مريمة : وفى الأماكن التى أحببنا فيها الحياة، سيمضون فيها للموت.

أبو عبدالله : سيجلبون أزهارًا مختلفة، لغة أخرى، عيونًا أخرى..

مريمة : طريقة غريبة للحب، ولكون المرأة محبوبة.

أبو عبدالله : وفى الأماكن التى يستريح فيها رفات أسلافنا..

مريمة : لا غالب إلا الله.

أبو عبدالله : ستتمو أعشاب مهجورة، سيدنس نبات النار، النصب المرمرية التى ما قبلها غير الشمس والمطر، ستنسى القاعة التى دفن فيها رفات الملوك.

مريمة : (بصوت خفيض) لا غالب إلا الله.

أبو عبدالله : فى أرضنا هذه، المثمرة، المزروعة، السعيدة، سيدفنون موتاهم.. لقد تغير صاحب العالم إلى الأبد..

مريمة : سيشهد المرمر الهرم ـ فى دهشة ـ مشاهد لم تر قط..

أبو عبدالله : لكن لن يكون لنا نصيب منها.

مريمة : هنيئًا للزليج، ولخنزير بطائن السقوف الأشقر، لأنها ستظل فى مكانها، بينما نحن نضوى شوقا إليها.

أبو عبدالله : خدعنا الآس والعوسج، خدعنى قلب غرناطة..

إيزابل : سيغلق درع قشتالة بثكنة عظيمة، بقلب غرناطة..

أصوات : لقد سقطت غرناطة فى يد دون فرناندو، ودونيا إيزابل، لقد غدت غرناطة لقشتالة!!

إيزابل : غرناطة لنا، أين كولومبوس؟ لقد حان الوقت للحديث عن الهند الشرقية.

صوت : إنه مضى يا سيدتى، فى طريقه إلى فرنسا، ليعرض مشروعه على ملك الفرنسيين.

إيــــزابــــل : نادوه، اذهبوا فى طلبه وائتوا به، ستقوم قشتالة بتحقيق هذه الأحلام، أمام عتبة الفردوس، ستوقع قشتالة معاهداتها.

الشاعر الجوال :

فى مدينة غرناطة
يصيحون صيحات هائلة
البعض ينادى محمدًا
وآخرون ينادون بالتثليث
تدخل الصلبان من جانب
ويخرج القرآن من جانب آخر
حيث كانت تُسمع سور قبل ذلك
يُسمع صليل الأجراس
يُسمع «الحمد لله فى الأعالى»
بعد إقامة الصلوات الخمس
الأبراج ليست على هيئة الهلال
ويشاهد تغيير فى القلاع
ملك يدخل سعيدًا
وآخر يمضى باكيًا

أبو عـبـدالله : أيتها البيازين الباذخة، بيازينى.
آه، لقيساريتى
حمرائى، دشاراتى
مسجدى الجامع

حماماتى، بساتينى، نهرى
حيث تعودت أن أستريح..
من الذى أبعدك عنى
حيث لن أراك أبدًا؟
حتى هذه اللحظة أراك
ومن بعيد يا مدينتى
عاجلاً لن أراك
لأننى سأقصى عنك
عجبًا يا عجلة الحظ
مجنون من يثق فيك
بالأمس كنت ملكًا مشهورًا
واليوم ليس فى يدى شىء

عائشة : ابكِ مثل النساء ملكا مضاعا
لم تحافظ عليه مثل الرجال

الشاعر الجوال :

برانس، لا عمائم
لن يقبل المسلمون بمسلمين آخرين
برانس، لا عمائم
حمراء، بنفسجية، أو خضراء
لا مرط، لا عباءة
لا مآزر، لا أكسية
لا تقام مبارزات

ولا تخضب السواعد الفتية بالحناء
لا يسعون إلى سيداتهم
فى الحضور والغياب
ولا غيرة ملحة
ولا عطايا حب
برانس، لا عمائم
حمراء، بنفسجية، أو خضراء
فالجميع يلبس السواد
يلبسون ثيابًا برتغالية
يرون أن القدرة الإلهية
هم عنها مبعدون...

أبو عبدالله : كل شىء يصل إلى ذروته العليا، يبدأ فى الانحدار، لا تتخلوا عن سحر الحياة، وحب الحياة

أين الملوك ذوو التيجان من يمن
وأين منهم أكاليل وتيجان
وصار ما كان من ملك ومن ملك
كما حكى عن خيال الطيف وسنان
دار الزمان على دارا وقاتله
وأم كسرى فما آواه أيوان
كأنما الصعب لم يسهل له سبب
يومًا، ولا ملك الدنيا سليمان

دهى الجزيرة أمر لا عزاء له
هوى له أحد، وانهد ثهلان
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية
وأين شاطبة أم أين جيان
وأين قرطبة دار العلوم فكم
من عالم قد سما فيها له شان
وأين حمص، وما تحويه من نزه
ونهرها العذب فياض وملآن

حتى غرناطة التى بقيت لؤلؤة فى جبين الإسلام، حيث يعبد الله.. لا غالب إلا الله. فإنكم ترونها الآن.. هل ثمة وطن لإنسان يفقد غرناطة.. البكاء، البكاء، لأن أى شىء إذا هوى، فإنما يهوى إلى مكان سحيق..

# الفهـــرس

| الموضـوع | الصفحة |
|---|---|

رقم الإيداع والترقيم الدولى

٢٠٠٥ / ١٨٦٣٠

I.S.B.N 977 - 01- 9953 - 2



إن القراءة كانت ولاتزال وسوف تبقى، سيدة مصادر المعرفة، ومبعث الإلهام والرؤية الواضحة .. وعلى الرغم من ظهور مصادر حديثة للمعرفة، وبرغم جاذبيتها ومنافستها القوية للقراءة، فإننى مؤمنة بأن الكلمة المكتوبة تظل هى مفتاح التنمية البشرية، والأسلوب الأمثل للتعلُّم، فهى وعاء القيم وحافظة التراث، وحاملة المبادئ الكبرى فى تاريخ الجنس البشرى كله.

سوزان مبارك






الثمن ١٥٠ قرشا